

قُصَصُ الْقُرْآنِ

لِلأَطْفَالِ



محمد الدسوقي

طبعة جديدة 2015

مكتبة
البركت



للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية ونوادير التراث
واللغات الحية. شعارنا:
قدم الجديد..

8 بسعر رخيص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - الفرقة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٦٢٧٨٨٦ - ٢٦٢٥٢٢٨٢ فاكس: ٢٦٢٨٠٨٢

Web site: www.ibnsina-eg.com

E-mail: info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للنشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

اسم الكتاب: قصص القرآن للأطفال
اسم المؤلف: محمد الدسوقي
عدد الصفحات: ٩٦ صفحة
رقم الإيداع: ١٩٥٤٣ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي: 977-271-604-6

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالملكة العربية السعودية من

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧

E-mail: alsaa99@hotmail.com

مطابع البور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٤٨٩٠٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

مقدمة

والحمد لله رب العالمين،
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء
 والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله
 وصحبه أجمعين!

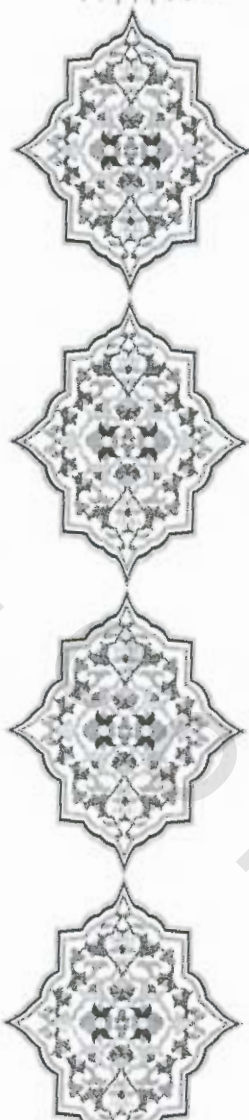


وبعد:

فها هي ذي مختارات من قصص
القرآن تنوعت أهدافها ومراميها، وقع
اختيارنا عليها لأبنائنا وبناتنا في مرحلة
الطفولة، حرصا منا على تزويدهم
بالحقم الرفيعة وتبصيرا بما قد يعوق
مسيرتهم على الطريق فمن لا يعرف
الشر يقع فيه!

وواجب الكتاب والمربين أن يأتمروا
بما أمر الله به نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَأَقْصَصْ
الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]
وقوله ﷻ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وها نحن أولاء نقص عليكم ما فيه نفع
لكم، وتقوية لإيمانكم، وحماية لخطاكم،



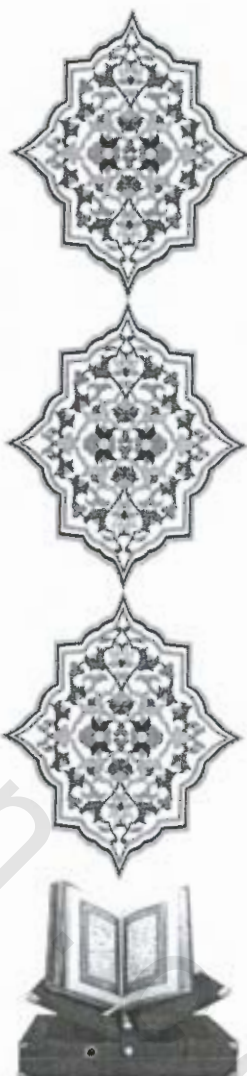
وبناء لشخصيتكم، وتربية لوجدانكم
وغرس للقيم الفاضلة فيكم!

هذا ومن خصائص «القرآن الكريم» أنه
لا يُعنى بالأشخاص والزمان والمكان في
قصصه مثلما يُعنى بانتزاع العبرة منها،
والاستفادة بها فيما سيقى له.

ولهذا كان اهتمامنا بتسجيل الحدث،
والاستفادة منه، دون الجري وراء الأسماء
والأمكنة والأزمنة اقتداء بالقرآن الكريم ،
حيث لم يتعرض لها!

بقى أن ندعو لكم بالتوفيق والانتفاع
بما نقدمه لكم بين حين وآخر، والله
الموفق...

المؤلف





قاييل وهايبيل .. وبوادر العداء بين الإخوة!

• من هنا نبدأ

في البدء كان أبونا آدم، وأمنا حواء...
ومن آدم وحواء كان قاييل وهايبيل، ولكل منهما أخت وُلدت معه
وكبرت حتى سن النضج!

قاييل يُحب الأرض ويزرعها فتُعطيهِ، ويجني ثمار عمله وجهده.
وهايبيل يرعى الغنم والأنعام، ويعود في المساء حين تهدأ لتنام.

• إبليس يوقع بين الأخوين!

ومرت الأيام وكأنها أحلام!
لكن إبليس اللعين كان يدبّر لهما في الخفاء ليوقع بينهما ويبدّر بذور
العداوة بين الأخ وأخيه. وأخذ ينتهز الفرصة التي يُمارس فيها مهمته..
كان المتبّع آنذاك أن يتزوج كلٌ منهما توءم أخيه لا توءمته!
كانت توءمة قاييل رائعة الجمال!

أما توءمة هابيل فلم تكن في مستواها بحالٍ من الأحوال!
تقدم هابيل ليتزوج أخت قاييل على سُنّة الله ونبيّه آدم!
ولكن قاييل غضب وثار! وقال: هي أختي.. ولدت معي، فأنا أولى بها
وأحقُّ منك... وعندك أختك!

وتدخل الشيطان بينهما في الوقت المناسب ليوقع بين الأخ وأخيه!

• موقف آدم من ولديه !

عرف الوالد آدم عليه السلام ما دار بين الأخ وأخيه فأراد أن يعالج الأمر بحكمة وروية!
تُرى ماذا فعل؟

اقترح عليهما أن يقدم كل منهما قربانا إلى الله، فمن قبل قربانه كان أحق بالفتاة!

هابيل صاحب أغنام وأنعام فقدم أحسن كبش عنده.
وقابيل صاحب زرع وثمر فاكتفى بتقديم حزمة من زرعه!
وانتظر كل منهما قبول قربانه!

كانت تنزل نار فتأكل ذلك القربان علامة للقبول!

﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وكان هابيل تقياً صادق الإيمان! متوكلاً على الله!
والشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون!
أما قابيل فقد كان مُحباً لنفسه، ولم يكن قوى الإيمان ... فوسوس له
الشيطان حينما قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه!

• يا ويل قابيل لم يقبل قربانه !!

دارت الدنيا به، وضافت في عينه وغلت الدماء في عروقه، وامتلاً قلبه
حقداً على أخيه وبُغضاً له!

وأقبل إبليس عليه يعرض خدماته ومساعداته وضحك عليه وأغواه
ورسم له كيف يتخلص من أخيه في غياب أبيه ليخلو الجو له وينعم
بزواج من يحبها وهى أخته!

• حوار بين الأخوين:

وجرى بينه وبين أخيه حوار، فإذا به يقول له مهددًا: «لأقتلنك».

وإذا بأخيه العاقل المسالم يقول له:

﴿لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَىٰ إِلَيْكَ لِأَفْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وكان لهذه الكلمات العاقلة المتزنة أثرها في نفسه.. فاتهمها.. وتذكر
غياب أبيه.. والأمانة الموضوعة في رقبته.. وما يترتب على قتله من غضب
الله عليه، وحُزن أبويه مما سوف يحدث.. وعرف أن الجريمة لا تُفید!
اطمأن أخوه إليه، وزاد أمله في أن تعود المياه إلى مجاريها ويتغلبا
على الشيطان الذي أخرج أبويهما من الجنة، وأخذ على نفسه عهدًا أن
يوسوس لأبناء آدم وستظل عداوته إلى يوم القيامة!

• إبليس للأخوين بالمرصاد!

ولكن إبليس كان له بالمرصاد فأقبل عليه يوسوس له قائلاً: هيا قبل
فوات الأوان!.. والحل هو القتل!

إن لم تُقدم على قتل أخيك فسوف تُضيع الفرصة من يدك إلى الأبد!
وأعماه الشيطانُ وأثر على عقله... فاندفع إليه وهو نائم بجوار غنمه
وألقى عليه صخرة حطمت رأسه فلفظ أنفاسه وهو يقول: إلى الرفيق
الأعلى! أهكذا يضحك عليك الشيطان؟!

نظر قابيلُ يبحث عن شيطانه الذي أضله وأغواه فلم يجده وأحس أن
كل ما حوله يقول له:

لقد مات هابيل شهيدًا يا قابيل!
لقد خُنت الأمانة التي تحملتها، وأصبحت ظلومًا جهولًا!! إن المؤمن
بُنْيَانُ الرَّبِّ مِنْ هَدَمِهِ هَدَمَهُ اللهُ!

• لحظات الندم!

حمل أخاه على كتفه وراح يبحثُ له عن مكان يُواريه فيه!
ودموعه تسيل على خديه من الندم والحسرة!

• غراب يعلمه كيف يوارى سوء أخيه!!

وسارعت جماعة الغربان لكي تقدم خبرتها وتبذل معونتها للإنسان!
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوْءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].
وأدت الغربان دورها بمهارة، فإذا هو في حيرته وندمه
يقول ﴿يَنُوتِلِكُمْ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

• ولكن هل ينفع الندم؟

افتح مصحفك واقرأ الآيات من ٢٧ إلى ٣١ من سورة المائدة وفكر
كثيرًا قبل أن تقدم على الشر فالجريمة لا تفيد ومن استعجل بشيء قبل
أوانه عوقب بحرمانه!



أَصْحَابُ السَّبْتِ.. وما حلَّ بهم من عذاب بئيس

المسلمون لهم يوم في الأسبوع يجعلونه عيدًا لهم هو يوم الجمعة، إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فإنهم يسعون إلى ذكر الله ويذرون البيع وكل ما يشغلهم، فإذا صلوا انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله وذكروا الله كثيرًا. واليهود يعظمون السبت ولا يزاولون فيه عملاً يشغلهم عن عبادة ربهم.

أما النصارى فهم يعظمون الأحد ويستمعون فيه إلى العظات، وهكذا نجد لكل دين من الأديان الثلاثة السماوية يومًا يخصونه بمزيد من العبادة والتقديس!

ومنذ سيدنا موسى عليه السلام وبنو إسرائيل يقدسون يوم السبت ، وله عندهم منزلة خاصة.

وفي إحدى القرى على شاطئ البحر كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام..

هذه القرية على ساحل البحر تسمى «أيلة» وبجانبها حجران أبيضان تخرج الحيتان إليهما ليلة السبت ويومه، حيث تأمن أن تصاد، فالقوم لا يزاولون عملاً من أعمال دنياهم من صيد، أو متاجرة ، أو صناعة!

وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وكانت تجربة قاسية!

الحيثان تتكاثر وتتزاحم في ظل الأمن والأمان! فإذا جاءت ليلة الأحد تسربت الحيثان إلى البحر فانبعثت إلى باطنه فتعذر على القوم اصطيادها حين تصبح حلاً لهم!

وكان في القرية مؤمنون وفساق.. صالحون وطالحون. قانعون وطامعون، فتحركت دواعي الطمع واثارت عوامل الجشع في نفوس الفساق من أهل هذه القرية!

وغفلوا عن تعاليم أنبيائهم ، ونسوا حظاً مما ذكروا به فتشاوروا فيما بينهم، وتبادلوا زمام الرأي وقال بعضهم لبعض:

ما بالنا نترك هذه الحيثان في اليوم الذي تتزاحم فيه وتكثر وتزيد بينما نحاول صيدها بمشقة وجهد حين تبعد عنا ، إن أمرنا لعجيب!

الرأي الصواب أن نُقبل عليها يوم السبت.. يوم تكاثرها نأخذ منها ما نريد!

وأقبلوا عليها غير عابئين بتعاليم دينهم وأوامر نبيهم فاصطادوا منها بلا تعب ما شاءوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشوي ومقلي وملئوا منها البطون!

وعلم المتقون بما فعله الفساق المستهترون فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذروهم عاقبة أمرهم فلم يزددهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم وإمعاناً في ضلالهم!

وتأزم الموقف وثار المؤمنون وحاصروا القرية بالسلاح حيث لم تنفع

الكلمة مع هؤلاء الخارجين الآثمين الفاسقين! وثار الجدل بينهم، وقال الفاسقون:

إن القرية لنا ولكم ولا حق لكم في منعنا والانفراد بها دوننا فإن كان ولا بد فلنقسمها ولنبن بيننا وبينكم حائطاً حتى يعيش كل منا كما يحب! انفردت كل طائفة، وشغل الفساق بصيدهم وحفروا بحيرات تصل البحر بقريتهم فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم فإذا غربت شمس السبت وهمت الحيتان بالعودة حجزوها بسدود أقاموها، فلا تملك الحيتان إلى العودة سبيلاً!

ومع هذا الفسق، والخروج على تعاليم الدين ظل المؤمنون يزجرونهم، ويخوفونهم عذاب الله!

فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في ضلالهم وإثمهم!

وعندئذ **وَأَذْهَبَ اللَّهُ تِلْكَ الْأُمَّةَ مَتْنَهُمْ لِيَمَّ يَتَّبِعُونَ فَمَّا أَتَى اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٤﴾ [الأعراف: ١٦٤].**

فتركوهم بعد أن يئسوا من صلاح حالهم، أما نبي الله داود فقد ضاق بهم ودعا ربه أن ينزل عليهم عذابه وأن تحل بهم لعنته فزلزلت الأرض زلزالها، وفزع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم ولكن الله أنجاهم **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ^(١) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥].**

وهذه نهاية كل الخارجين على تعاليم الدين وأوامر رب العالمين من المعتدين الظالمين.

(١) بئيس: شديد

والرقيم وتضحيتهم في سبيل الحق والواجب!

أصحاب الكهف..

• سورة الكهف وما فيها من قصص

في القرآن الكريم سورة اسمها «سورة الكهف».. وتقع في وسطه، ويحرص المسلمون على الإنصات إلى قارئها حين تُتلى وبخاصة في يوم الجمعة لما فيها من العظات والعبر!

وقصة «أصحاب الكهف والرقيم» إحدى قصص ثلاث تناولتها «سورة الكهف» وهي قصة البطولة الإيمانية والتضحية في سبيل الحق والواجب ولهذا وصفهم القرآن الكريم بقوله ﴿رِئَاسَتُهُمْ فِيهِمْ ۖ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح!

وأما الثانية: فهي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وهي قصة التواضع واحتمال المشاق في سبيل العلم والمعرفة وقد جاء فيها على لسان موسى عليه السلام للعبد الصالح ﴿هَلْ أَتَعَبَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا﴾ [الكهف: ٦٦].

أما القصة الثالثة: فهي قصة العدل والنجدة والنموذج الصالح لمن مكن الله له في الأرض، وبها نموذج للقانون الصالح... قانون الجزاء العادل لا الكيل بمكيالين.. قانون العولمة الحقة لا العولمة الزائفة! فتعال نتابع ما قصه الله علينا في سورة الكهف.

• المراد بالكهف والرقيم

والكهف: الفجوة في الصخر ، وإن شئت فقل المغارة... أما الرقيم فهو الكتاب الذي يحمل أسماء أصحاب الكهف، أو الحجر.

أما من هم ؟ وما عددهم؟ وكم لبثوا في كهفهم؟ فتعال إلى هذه الآيات البيّنات...

لقد قص القرآن علينا قصتهم في إجمال مشوّق ثم أخذ في البيان والتفصيل بعد أن ذكر خلاصة القصة أولاً هكذا...

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۚ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۚ ﴾ [الكهف: ١١:٩].

فهم فتية آمنوا بربهم وفروا بدينهم!
لا نعلم عددهم ... ناموا سنين طويلة لا علم لنا بعددها. وقد بُعثوا من رقدتهم. فكانوا للناس عجباً!

• تفصيل بعد الإجمال

وبعد هذا التلخيص المشوّق يبدأ تفصيل ما أجمل مبينا أن ما يقوله هو حقّ اليقين، وهو القولُ الفصل فيما ورد على ألسنة الناس وفيما اختلفوا فيه من عددهم ومدة نومهم!

إنهم فتية أشداء في أجسامهم .. أشداء في إيمانهم... أشداء في استنكار ما عليه قومهم من كفر وإلحاد!
وشتان بين الاتجاهين!

الفتية يؤمنون بالله الخالق المنعم!!

وقومهم اتخذوا من دون الله آلهة يقصدونها ويعبدونها!!

لم يبق أمام هؤلاء الفتية الأبرار الأطهار إلا الفرار بالعقيدة ! الفرار
بدينهم. ولكن لماذا الفرار؟ وإلى أين؟

إنهم لا يستطيعون أن يُجاهروا بعقيدتهم الصحيحة بين قومهم فليسوا
رسلاً!

ولا يستطيعون مداراة قومهم وإخفاء عقيدتهم والعيش بينهم خوفاً
من أن ينكشف أمرهم وفي ذلك هلاكهم!

لا حلّ إلا أن يأوؤا إلى ذلك «الكهف» المظلم الضيق فرحمة الله
واسعة.. والله نور السموات والأرض فلتسعهم رحمته وليغمرهم نوره!
ولجأ الفتية إلى الكهف فاتسع لهم وأضاء بهم، فمن كان مع الله كان
الله معه لا يخذله ولا يُضيّعه ولا ينساه!

• نومة طالت!

وفي الكهف استراحوا وهدأت نفوسهم وأمنوا فتسرب النعاس إلى
أجفانهم فناموا!!

كل شيء في الكون كان يرعاهم في نومهم ويوفر لهم جوّاً هادئاً!
حتى الشمس حين تطلع تبتعد عنهم قليلاً حتى لا تؤذيهم حرارتها،
وحين تغرب تُجاوزهم إلى الشمال.
تحسبهم أيقاظاً وهم رقاد!

وكلبهم على الكهف باسطُ ذراعيه كأنما يقوم بحراستهم.. يراهم الناسُ
نيامًا كالأيقاظ! وأيقاظًا كالنيام!

يتقلبون من جنب إلى جنب ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يتأثروا
بهذه النومة الطويلة!

كل من يراهم يُخيل إليه أنهم أحياء!

ومرت ثلاثة قرون وهم بهذا الوضع!

وتغير الحاكم الذي فروا من ظلمه وكفره!

• عودة الحياة إليهم

وإذا الحياة تدب فيهم، وإذا هم أيقاظ! وأخذوا يتساءلون:

تُرى كم لبشنا؟ ويقول قائلهم: لبشنا يومًا أو بعض يوم!

ولم يطل بهم التساؤل فهم جائعون.. ولديهم فضة (وَرِق) يشترون بها
ما يبتغون من طعام وشراب!

وليس أمامهم إلا أن يبعثوا أحدهم بورقهم (بفضتهم) إلى السوق
ليختار لهم في حذر أطيب الطعام وأفضل الشراب!

إنهم يخافون أن ينكشف أمرهم فيحدث لهم ما لا تُحمد عقباه!

ومن أجل ذلك يوصون المكلف بشراء الطعام أن يكون لبقًا لطيفًا
حذرًا وهم لا يدرون أن حكم الملك الظالم قد انتهى! ومرت أعوام بعده
وتغير كل شيء وتبدل وعاد الناس إلى دينهم وعبادة ربهم الواحد الذي
لا شريك له!

• مفاجأة!

وكانت المفاجأة في سوق الطعام... فالعملة الفضية لم يعد أحد يتعامل بها.. والناس غير الناس! وظن البعض أنه عثر على كنز وعرف الناس أنه غريب قادم من عهود مضت وأنه أحد الفتية الفارين من ظلم الملك وبطشه!

منذ تسع وثلاثمائة سنة!

وتجمع الناس ليلحقوا بهم في كهفهم فرأوهم أحياء تشرق بالحياة وجوههم وما هو إلا ارتداد الطرف حتى فارقتهم الحياة!

وهنا قال فريق منهم:

﴿اٰتٰوْا عَلَيْهِمْ بُنْيٰنًا رَبُّهُمْ اَعْلَمُ بِهِمْ﴾ [الكهف: ٢١].

﴿قَالَ الَّذِيْنَ عَلَبُوْا عَلٰٓى اٰمْرِهُمْ لَنَنَحِّذَنَّ عَنْهُمْ مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس ملموس!

مثل يقرب للناس «قضية البعث» فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق وأن الساعة لا ريب فيها!

وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومهم وأعثر قومهم عليهم ﴿لِيَعْلَمُوْا اَنْتَ وَعَدَ اللّٰهُ حَقٌّ وَّاَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيْهَا﴾ [الكهف: ٢١].

﴿وَاَنَّ السَّاعَةَ اٰتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيْهَا وَاَنَّ اللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُوْرِ﴾ [الحج: ٧].

وتستطيع قراءة القصة كاملة في هذه الآيات من سورة الكهف:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ١ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ٢ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ٣ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ٤ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ٥ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ٦ هَذُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٧ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ٨ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْيَةً وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ وِلِيًّا مُرِيدًا ٩ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ١٠ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١١ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ١٢ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ١٣ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهيرًا وَلَا تَسْتَفِيتَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ١٤ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ سَأَيْءٌ إِلَيَّ فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ١٥ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ١٦ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ١٧ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ١٨﴾ [٢٦:٩].

موسى عليه السلام .. والعبد الصالح

• هذه القصة

ذكرت هذه القصة.. قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام مرة واحدة في سورة الكهف... وليس لها ذكر في غيرها من سور القرآن الباقية.

لقد ذكرها القرآن الكريم في الآيات (٦٠ إلى ٨٢) فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ ٦٠ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي نَادَاكَ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَسِيَا ۖ ٦١ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ ۖ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ ٦٢ قَالَ ذَلِكُ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ٦٣ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَالِيَنَّهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۖ ٦٤ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تَعْلَمَ مِنِّي مَا عَلِمْتَ رُشْدًا ۖ ٦٥ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ٦٦ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ۖ ٦٧ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ٦٨ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ ٦٩ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ ٧٠ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ٧١ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ ٧٢ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ۖ قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا رَّكِيَةً يَغْيِرُ نَفْسِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثُكْرًا ۖ ٧٣ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ٧٤ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۖ ٧٥ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمْ فَوَجَدَاهَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۖ

قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٧٨ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ٧٩ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢ [الكهف: ٦٠-٨٢].

ولم يحدد المكان الذي وقعت فيه أحداث هذه القصة إلا بأنه «مجمع البحرين» ولم يحدد الزمان الذي وقعت فيه القصة من حياة موسى عليه السلام أفي مصر أم في غيرها؟

أما «العبد الصالح» الذي لقيه موسى فلم يحدثنا القرآن إلا عن موقفه من موسى عليه السلام وموقف موسى عليه السلام منه.

• درس للنبي موسى عليه السلام!

ولقد أورد البخاري عند الكلام على هذه القصة في القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟

فقال: أنا !!

فعتب الله عليه: إذ لم يرِدْ العلم إليه!

فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك!

قال: يارب وكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتا^(١) فتجعله بمكتل^(٢) فحيثما فقدت الحوت فهو ثم^(٣). وانطلق موسى عليه السلام للقاء العبد الصالح، ومعه فتاه كانت مهمة الفتى مرافقة موسى عليه السلام في رحلته وحمل الحوت ليكون غداءهما حين ذهابهما إلى «مجمع البحرين» للقاء العبد الصالح! وقد يكون «مجمع البحرين» ملتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض.. بحر القلزم وبحر الروم كما كانت تسميتها قديمًا!

• شوق للقاء المعلم

كان سيدنا موسى عليه السلام مصممًا على الوصول إلى مجمع البحرين مهما تكن المشقة فكل شيء يهون في سبيل تحقيق الهدف! ألا وهو العلم.

إنه سوف يلقي «العبد الصالح» ويتعلم على يديه ما لم يكن يعلم، فالعلم بحر لا ساحل له، ولا علم لنا إلا ما علمنا الله!

• اللقاء الكريم

وعند «ملتقى البحرين» كان اللقاء بين نبي الله موسى عليه السلام و«العبد الصالح» الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما! وانتظر الفتى بعيدًا حتى يعود إليه موسى عليه السلام وبأدب النبوة يستفهم منه موسى عليه السلام ويطلب العلم الراشد- وهو النبي- من عبد الله الصالح العالم!

(١) سمكة

(٢) وعاء من خوص

(٣) هناك

• خشية ودعوة إلى الصبر والطاعة في طلب العلم

ولكن العبد الصالح يخشى على موسى أن لا يصبر على صحبته وتصرفاته، فقد آتاه الله علم الغيب... العلم اللدني، وقد تغيب عن الإنسان الأسرار والحكم فيما يدور بين الناس من أحداث لا يعلم سرها إلا الله ومن أفاض عليه من علمه فعلم ما لم يكن يعلم!

ومن أجل هذا قال العبد الصالح لنبي الله موسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا ﴿[الكهف:٦٧:٦٨].

ويُظهر له موسى عليه السلام عزمه على الصبر والطاعة ويستعين بالله ويُقدِّم المشيئة ويُبيد طاعة التلميذ لأستاذه قائلاً ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٩]

ويذكر له العبد الصالح شرط الصحبة قبل بدء الرحلة .. إن عليه أن يصبر ويصبر حتى يعجز الصبر عن صبره!

فلا يسأل.. ولا يستفسر عما قد يبدو عجيبيًا غريبًا من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها ويُحيطه علمًا بها فالله يعلم ما لا نعلم.. ولو أطلعنا على الغيب لاخترنا الواقع! ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] وقد نكره الشيء ومن يدري؟ ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

• قبول موسى عليه السلام بالشروط

ويرضى موسى عليه السلام ويوافق على شرط العبد الصالح لصحبته

ومرافقته ويقول له ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠] ويرضى موسى عليه السلام بمرافقته ومصاحبته كما يكون موقف طالب العلم من أستاذه : احترامًا وتقديرًا وإصغاءً وحرصًا وتأدبًا وإذا هما أمام المشهد الأول لهما!

• المشهد الأول

سفينة تحملهما، وتحمل معهما ركابًا، ويكرمهما أصحابها فلا يأخذون أجرًا ، وإذا بالعبد الصالح يقومُ بخرق السفينة دون وجود سببٍ واضح يجعله يُعرضُ حياةَ الركاب للخطر فضلًا عن السفينة التي أصبحت معيبة! وفكر موسى عليه السلام فيما فعله العبدُ الصالح، وقال في نفسه: لماذا أقدم على هذا الشر؟!

وتذكر وعده للعبد الصالح بالسكوت، ولكنه اندفع مستنكرًا قائلاً له ﴿ أَمْ أَخْرَقْنَاهَا لِلْفِرْقِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١].

وهنا يقول له العبد الصالح في صبر ولطفٍ:

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥] ويعتذر موسى عليه السلام ويقبل العبدُ الصالح عذره بعدما قال له ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣].

• المشهد الثاني

وانطلقا معًا إلى المشهد الثاني في أمان الله!

وإذا بهما يجدان «غلاما» فيقوم العبد الصالح بقتله عمدًا ودون سابق إنذار !! وينتقيه من بين زملاء له!

لم يستطع سيدنا موسى عليه السلام أن يصبر على ما رأى فقتل الغلام
أشد من خرق السفينة وعلى الرغم من تذكّره لوعده وجد نفسه يقول
للعبد الصالح:

﴿أَقَلَّتْ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

إن هذا أمر لا يصح السكوت عليه فالغلام بريء ولم يرتكب ما يُوجب
القتل وهو إلى جانب هذه لم يبلغ الحلم فليس مؤاخذاً بما يصدر عنه!
ويذكره «العبد الصالح» بالشرط الذي قطعه على نفسه في أول الرحلة
قائلاً ﴿قَالَ الرَّاقِلُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

ويُبدى سيدنا موسى عليه السلام أسفه، وندمه ، ويعده من
جديد فيقول ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْنِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾
[الكهف: ٧٦].

• المشهد الثالث:

ويواصلان معًا مسيرتهما في رحلة العلم والتعليم، وإذا بهما أمام
المشهد الثالث..

لقد قادتهما قدماهما إلى إحدى القرى وبلغ منهما الجوع مبلغه،
فطلبوا من أهل القرية طعامًا فأبوا أن يُضيفوهما !! فيا لهم من
بخلاء! وسارا فاستلفت نظرهما في هذه القرية جدارٌ يوشك أن
يسقط ويتهدم!

وتوقف العبد الصالح أمام هذا الجدار يتولى إقامته دون مُقابل! إنه
جدار بستان!

وعجب موسى عليه السلام من صنيع الرجل الصالح في هذه المرة الثالثة، وأخذ يفكر قبل أن يُبدي اعتراضه لعل هناك سرًّا خفى أمره عليه! وحرار في أمره!

إنهم في قرية أهلها بخلاء أبوا أن يُطعموهما مع أنهما في شدة الجوع، فكيف يقيم لهم حائطًا دون مقابل؟ فلا أقل من أن يأخذ منهم أجرًا مقابل خدمته فقال له:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] وكانت هذه الكلمة هي الفيصل! لم يعد لسيدنا موسى من عُذر!

• فراق!

ولم يعد هناك مجال لمواصلة الضُحبة في هذه الرحلة التعليمية التي لا يعلم سرّها إلا الله والعبدُ الصالحُ الذي آتاه الله رحمةً من عنده وعلمه من لدنه علما! وهنا قال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

وحزن موسى على ما قد يكون وراء هذا الفراق قبل معرفة السر، ولكن العبد الصالح قال له ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

• السر الذي غاب عن موسى!

ينبغي أن تعلم أن فوق كلّ ذي علم عليم! وأن الله واهبُ العلم وعلمنا أن ننسب علمنا إلى الله الذي علّمنا ما لم نكن نعلم!

• سر السفينة!

ويأخذ السرُّ في التجلّي! حين يكشف عنه العبد الصالح قائلاً: **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** [الكهف: ٧٩].

وقال موسى عليه السلام : سبحان الله الذي يعلم السر وأخفى فبهذا العيب نجت السفينة من يد الملك الظالم وكان الضرُّ الصغيرُ الذي لحقها اتقاء للضرر الكبير لو بقيت سليمة!

اللهم إنك تعلم ما لا نعلم!

• سر الغلام!

وتطلعت نفس موسى عليه السلام إلى معرفة سر الغلام، فقال الرجل الصالح: **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** [الكهف: ٨٠: ٨١].

فقال موسى : سبحان الله لا يعلم الغيب إلا الله : لله حكمة فلو عاش هذه الغلام الذي كانت تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان لأرهمق أبويه المؤمنين وأراد ربُّنا أن يريحهما منه ويبدلهما ما يُعوّضهما عنه من الأبناء الصالحين!

• سر الجدار الذي كان مائلاً فأقامه!

بقي الجدار.. جدارُ البستان الذي أقامه العبدُ الصالح على الرغم مما كان من أهل القرية نحوهما ! فقال:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

إن هذا الجدار كان لـغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحًا فمن لليتيم غير الله يرعاه؟! لقد أراد الله أن يحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا إكرامًا لضعفهما وصلاح أبيهما!

وعندما انكشف الغطاء عن السر في هذه الثالثة عرف موسى أن الله وحده هو عالم الأسرار التي لا يكشف عنها للإنسان إلا بمقدار! وأن فوق كل ذي علم عليم!

وأراك تقول: كيف لمثلي أن يعلم ما لم يكن يعلم؟
وأقول كما قال الله لنا:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]



ورحلات الخير في الشرق والغرب

ذو القرنين..

• نموذج الملك الصالح

حياة ذي القرنين كانت كلها ارتحالا وفتحا واستكشافا وإصلاحا.. هكذا كانت رحلاته التي حدثنا عنها القرآن إلى المغرب ثم إلى المشرق! فتعال نتابع خطواته...

• رحلته إلى مغرب الشمس

رحل إلى مغرب الشمس فاتحًا غازيًا لا يبالي بما يصادفه من عقبات ما دام الله قد مكن له في الأرض فمن كان مع الله كان الله معه! جنوده في منتهى الطاعة والانقياد وكل ما هو في حاجة إليه من توطيد ملكه مهياً له وطوع أمره فلا عجب أن يمنحه الله في القتال حظاً سعيدياً وفتحاً مبيناً!

وظل يواصل السير والفتح حتى وصل إلى «عين» اختلط مأوها وطينها فخيّل إليه أن الشمس تغرب فيها، أو تختفي وراءها! وظن أن هذه نهاية المسير، ولا فتح بعدها.. ولكنه رأى عندها أقواماً فيهم غلظة وشدة.. سفكوا الدماء ونشروا الفساد! فاستخار الله في أمرهم ، ماذا يصنع بهم؟!

فخيره الله بين سبيلين يختار أحدهما ويسلك ما يريد منهما إما أن يذيقهم القتل وينكل بهم جزاء كفرهم وطغيانهم.

وإما أن يمهلهم ويعطيهم فرصة لعلمهم يهتدون ويرتدعون! فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل ثم قال:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعْتَهُ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ۚ ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٧:٨٩].

وأقام فيهم مدة.. نصر المظلوم، وضرب على يد الظالم، وأخذ بيد الضعيف ونشر لواء الإصلاح، وهكذا يكون الولاة والقادة مع شعوبهم!... ثم ماذا؟

• رحلته إلى مشرق الشمس

إن لديه مهمة عظيمة يريد أن يقوم بها لينشر العدل في الأرض، وما دام قد اطمأن على الغرب فليرحل إلى الشرق ليعم العدل العالم وترفرف أعلام السلام!

وبدأت رحلة الفتوح العظيمة، والمهام الجسيمة ، فسار غازيًا، ومجاهدًا، وظافرًا، منتصرًا، مؤيدًا بتوفيق الله، وما النصر إلا من عند الله!

وهناك وجد شيئًا عجيبًا غريبًا استلفت نظره، فتوقف عنده بعد أن وصل في سيره إلى غاية العمران في الأرض!

فماذا وجد هناك؟ وماذا رأى؟

لقد وجد أقواما تطلع عليهم الشمس ولكن ليس لهم بيوت تسترهم
ولا أشجار تظللهم ولكنهم في حالة من الفوضى وقد بلغ بهم الجهل
منتهاه!

فبسط على بلادهم لواء حُكمه ونوّرهم بعلمه ورأيه فاستناروا وصلح
حالهم! ووصل العمران إلى بلادهم!

• هيا إلى الشمال:

كان لابد أن يفارق «المشرق» متجهاً إلى الشمال بعد أن تحقق له ما
أراد.. فليكمل المسيرة.. مسيرة الإصلاح... والعدل والحق.. والخير!
وانتهى به المسير إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام من الصعب
فهم لغتهم والتحدث إليهم ولكنهم يعانون من مشكلة تقصّ مضجعهم
وتنغصّ عليهم حياتهم!

لقد جاوروا «يأجوج ومأجوج» وهم قوم يعيشون في الأرض فسادا
رُكّب الشر في نفوسهم، وامتزج الفساد بقلوبهم!
لا ينفع معهم نصح، ولا يحول دون عدوانهم سيف!

• اقترح ينتظر التنفيذ:

وفكر ذو القرنين في حمايتهم!
واقترحوا عليه بعد أن اطمأنوا إليه أن يقيم لهم سدا يحول دون عدوان
يأجوج ومأجوج! وهم على أتم الاستعداد لكي يدفعوا له ما يريد!

ولكن ذا القرنين قد أغناه الله بالحلال، ومكنه من كنوز الأرض وخيراتها
وعنده ما يكفيه!

لقد أجابهم إلى سؤالهم ورد عليهم أموالهم وقال لهم ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي
خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

فقط طلب منهم اليد العاملة.. والخامات المطلوبة لإقامة السد..
طلب منهم أن يُعينوه على ما يفعل.. ويساعده على ما يصنع..
وإذا بهم يضعون بين الجبلين قطع الحديد ومن حولها الفحم
والخشب وإذا به يُفرغ على ذلك كله النحاس المذاب! وإذا بالفراغ
الذي بين الجبلين يصبح سدًا منيعًا قائمًا أملس لا يتسنى تسلقه أو
اختراقه!

وارتفعت الأصوات شاكرة لذي القرنين مروءته وشهامته ونجدته
وشفافيته بعد أن أراحهم الله من يأجوج ومأجوج!

أما ذو القرنين فقد نظر إلى السد ورآه حصينًا منيعًا قائمًا فهتف من
كل قلبه معترفًا بفضل ربه ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا﴾ ^(١) [الكهف: ٩٨].

لقد كان ذو القرنين رجلًا صالحًا مؤمنًا ملكه الله شرق الأرض
وغربها!

إنه لم ينس في قمة نجاحه وانتصاراته فضل ربه عليه وما حققه على
يديه فلولا رحمة الله وفضله ما تحقق من ذلك شيء!

(١) دكاء: أرضًا مستوية.

يرحمه الله لقد كان ملكًا صالحًا مكن الله له في الأرض مشارقها
ومغاربها! إننا نذكره لا لأنه ملك ، ولكن لأعماله الصالحة ومواقفه
النبيلة!!

وكم نحن بحاجة إلى مثل ذي القرنين في أيامنا هذه التي ساد فيها
الكيل بمكيالين.

كم نود أن يسود قانون الجزاء العادل في المفسدين والمصلحين حتى
تتحسر موجات الفساد على الأرض وتتوقف الاغتيالات!

كم نحن بحاجة إلى مثل ذي القرنين ليأخذ بيد الدول النامية
المستضعفة ليعلمها كيف تعتمد على نفسها وتشترك في بناء
نهضتها!

يارب! في القرن «الحادي والعشرين» ظهر الفساد في البر والبحر
فمن يقيم السد في وجه أولئك الذين يغيرون على الأراضي العربية حتى
يتحقق أمل الانتفاضة الفلسطينية!!!

سَدُّ مَآرِبٍ..

الذي دمرته السيول.
وسرّ تدميره!

• سد هنا وسد هناك؛

إذا كان «سَدُّ أُسْوَانَ الْعَالِي» في مصر، في عصرنا الحاضر رمزاً للخصب والخير والنماء والازدهار، وأعظم سد في العصر الحديث فإن «سَدَّ مَآرِبٍ» في اليمن- قديماً- كان له عظيمُ الشأن، ووافرُ العطاء والخير والنماء!

• سَدَّ مَآرِبٍ فِي الْقُرْآنِ وَسِرُّ تَدْمِيرِهِ!

وقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك السد والسيول الذي أطاح به ودمره بعد أن كفروا بالنعمة ولم يذكروا فضل الله عليهم فقال ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ (١) فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (٢) فَأَعْرَضُوا (٣) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (٤) ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَافِرُ (٥) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا مِّنْهُنَّ (٦) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٧) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٨) [سبأ: ١٥-٢٠]

(١) لسبأ: لولد سبأ، وسبأ: رجل من العرب. آية: علاقة أنه لا رب لهم إلا الله الذي أنعم عليهم. جنتان: بستانان بين جبلين.

(٢) فأعرضوا: عن طاعة الله عز وجل. فأرسلنا عليهم: فبعثنا على سدهم الذي كان يحبس السيل. العرم: الذي لا يطاق أو هو اسم الوادي. وبدلناهم بجنتيهم جنتين من الفواكه والثمار بساتين من ثمر الأراك وهو «الخمط». ذواتي أكل: ذواتي ثمر. وأثل: شجر الطرفاء أو ما يشبه الطرفاء. سدر: شجر النبق.

• حذار من الإعراض!

لقد قامت دولة سبأ باليمن.. وفي مدينة «صرواح» أقاموا القصور الشامخة، ثم انتقلوا منها إلى «مأرب» واتخذوها حاضرة لهم، وإن شئت فقل عاصمة. حيث طابت الحياة وتقلبوا في العز والنعيم.

ومدينة مأرب تقع في نهاية وادٍ فسيح يلتقي بمجرى السيول المنحدرة من جبل السَّراة!

وهدهم الله إلى إقامة الحدود والحواجز للارتفاع بالمياه! وكان «سد مأرب» أقواها، وأمتنها، وأكثرها نفعا كالسد العالي عندنا!

• أثر سد مأرب في حياة سبأ!

وظهرت آثار السد واضحة جلية فأصبحت الصحراء جنات خضراء عن يمين وشمال تجري فيها القنوات، وتفيض بالخير والبركات.

هذه أشجار دانية القطوف وتلك أزهار مختلفة الأشكال والألوان! ما بين أبيض ناصع إلى أصفر فاقع إلى أحمر قانٍ! والنسيم وما أدراك ما النسيم... يمر بالورود فيقبلها ثم يحمل عطرها إلى أهل سبأ حقاً إنه اليمن السعيد! فهذه الثمار الدانية في متناول الأيدي والأفواه!

حتى إن المرأة كانت تسيّر تحت الأشجار حاملةً وعاءً من خوص (مِكتل) فوق رأسها فلا تلبث أن تعود وقد امتلأ الإناء بما لذ وطاب من الثمر الذي استوى على عوده واكتمل نضجه!

حقاً لقد كانت سبأ على جانب عظيم من الحضارة والنعيم المقيم!

• سر بقاء النعم أو زوالها:

وفي ظل هذا النعيم المقيم كانوا يعيشون ويتمتعون ويأكلون ويشربون ! ويتعاطون تجارة الذهب والأحجار الكريمة! وبقاء النعم أو زوالها مرهون بشكرها أو كفرها! لكن «سبأ» لم يشكروا الله وكفروا بالنعمة وصمّوا آذانهم عن كل نصح ونسُوا الله واهب الحياة فأنساهم أنفسهم!

وشغلهم ما هم فيه من ترفٍ ونعيم عن البناء والتعمير، وانصرفوا عن العمل المثمر الخلاق وكفروا بنعمة الله!

فلم يعد يناسبهم إلا زوال هذه النعمة عنهم، ليصبحوا مثلاً لغيرهم وعبرة لمن يأتي بعدهم!

حقاً إن المعاصي تُزيل النعم! وشكر الإله هو سر بقائها! وجاء أمر ربك! تدفقت السيول... فأهلك الزرع والضرع.. وانهار السد الذي كان يحمي البلاد من الغرق!

وأصبحت البلاد صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء سوى أشجار ليس فيها غناء (فائدة) لا تثمر إلا كلّ مُر، وأثل وشيء من سدر (نبق) قليل!

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا وَهُمْ يَجْرُونَ إِلَّا الْكَافُرُ ﴾ [سبأ: ١٧].

وتفرقوا هنا وهناك ونزحوا عن ديارهم ثم تمزقوا في شتى البلاد ومُزقوا كل ممزق وصار يضرب بهم المثل في كل من تفرقوا فقل:

«تفرقوا أيدي سباً» أو «ذهبوا أيدي سباً» أو «أيادي سباً» تشبيهاً بأهل
سباً حيث أخذت كل طائفة منهم طريقها على حده!
واليد: الطريق، فمنهم من انحاز إلى الشام ومنهم من ذهب إلى
يثرب ومنهم من ذهب إلى تهامة ومنهم من ذهب إلى عُمان.. كل في
طريق! وفي طريقهم كانت كلمات تنساب إلى آذانهم:
إن المعاصي تُزيل النعم!!



أصحاب الأخدود.. والنار ذات الوقود!

• في المثل العربي :

«لابدٌ من صنعا وإن طال السفر»!!

و«صنعا» هي صنعاء عاصمة اليمن منذ القدم وعُرفت قبل الإسلام بقصورها (قصر غمدان والقُليس) ويقول التاريخ:

«ذات يوم في عهد الملك «ذي نواس» أحد ملوك حمير التابعة قام بحفر أخدود عظيم وفيه النار ليكون «محرقة» لأهل نجران بني الحارث ابن كعب الذين رفضوا ترك دينهم إلى اليهودية!!» وكانت طوائف من اليهود الذين شردهم بختنصر قد تسللوا إلى شبه الجزيرة العربية وبلغوا أقصاها في اليمن.

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الأخدود والمحرقة التي أقيمت للمؤمنين من النصارى على أيدي اليهود فما تفصيل ذلك؟

يقول التاريخ: ذات يوم كان الملك «ذو نواس» في قصره يفكر في إرجاع اليهودية في اليمن إلى ما كانت عليه بعد أن انتهى من قتل «ذي الشناتر» وتوطيد الملك في صنعاء!

• عزم على نشر اليهودية!

وقال الملك في نفسه : لابدٌ من غزوةٍ بعيدةٍ تنتظم الشرق والغرب والسهل والجبل!

وأقسم يمينًا غليظًا ألا يهنأ له بال، ولا يغمض له جفن حتى يرى اليهودية دينًا شاملًا، وحكم التوراة نافذًا!!

كان ذلك قبل ظهور الإسلام والناس ما عدا اليهود بين وثني ونصراني! وبينما هو يفكر إذا برجلٍ قادم من «نجران» على فرس له يريد لقاء الملك!

و«نجران» إقليم باليمن من ناحية مكة، وكان منه «نصاري نجران» الذين وفدوا على النبي محمد ﷺ بعدما بُعث فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم وحاورهم وحاوروه، واستمع إليهم واستمعوا إليه وجادلوه، وجاء ذكر قصتهم في القرآن في سورة آل عمران!

• الفارس وما وراءه من أخبار

كان هذا الفارسُ القادمُ من نجران على الملك «ذي نُوَاس» يحمل رسالة خطيرة إليه جاء فيها أن أمرًا خطيرًا قد وقع، ويوشك أن يمتد إلى غير نجران مما جاورها!

وسأل الملكُ ذو نُوَاس ذلك الفارس عما حدث تفصيلًا فقال الفارس: إن دينًا جديدًا قد دخل على نجران هو «النصرانية» ويبشرون له باسم السيد المسيح عيسى ابن مريم!

فقال الملك ذو نواس: وما موقف الناس منه في نجران؟

قال الفارس: أما الوثنيون من أهل البلاد فقد ارتاحت نفوسهم إلى هذا الدين الذي يُبشّرُ بالمحبة والسلام!

وأما اليهودُ: ففريق منهم صباً عن دينه وتخلّى عنه ودخل فيما دخل فيه الوثنيون!

وفريق آخر من اليهود ظلّ على دينه متمسكاً به لكنه يمرّ بمحنة ويتناقص عدد اليهود يوماً بعد يوم!

فإن لم يتداركهم الملكُ بنجران فإن اليهودية سوف يُقضى عليها ولا يبقى على الساحة إلا النصرانية!

• غضب وثورة!

وثارت ثائرةُ ذي نُوّاس، وغلى الدُمّ في عروقه وأخذ يتساءل: كيف يظهر في نجران دينٌ غير اليهودية؟ وكيف يعلو فيها حكمٌ لغير التوراة؟! إن هذا لعجيب!!

يا لهم مني!!

وخرج «ذو نُوّاس» من صنعاء بجيش جرّار قاصداً نجران! فلما وصل إليها ضرب حصاراً حولها فارتاع الناسُ وذهلوا!! وخرج إليه سادتهم وكبرأؤهم فقال لهم:

إني أخيركم بين اليهودية ديني اليوم ، ودين تُبّعٍ من قبل وبين الدين الجديد الذي اعتنقتموه!

وليس أمامكم إلا أن تفكروا في المصير الذي ينتظركم على يدَيّ إن اعتنقتم غير اليهودية واتخذتم النصرانيّة لكم ديناً!!

• فاجابوا على الفور:

النصرانية دين آمننا به وأحببناه ولا نرضى به بديلا ولا عنه تحويلا دين السيد المسيح الذي جاء بعد موسى عليهما السلام! وسواء علينا أوسَّعت لنا في الأجل أم عجلت لنا بالموت فالموت في سبيل الله أحلى أمانينا!!

• إقامة محرقة كبرى!

فلما رأى الملك إصرارهم أمر بشق «أخدود» في الأرض وأحضر حطبًا ووقودًا وأشعل النار حتى تأججت وامتلاً الجو دخانا خانقا ولهبا حارقا ثم أصدر أمره بإلقائهم في نار ذلك الأخدود أحياء وكُل ذنبهم أنهم مؤمنون! لم يتركوا شيئا فانيا ولا امرأة عجوزا ولا طفلا رضيعا إلا وألقوه في النار الحامية!

• اليهود بين ماض وحاضر!

«ذو نواس» أقام للمؤمنين بالسيد المسيح عليه السلام محرقة وأشعل فيهم النار! وما أشبه الليلة بالبارحة!! فإسرائيل تُلقي على الفلسطينيين والعرب قتابل «النابلم» وصواريخ من فوقهم ومتفجرات من تحت أرجلهم وتغتال قادتهم لا لشيء إلا لأنهم عرب سواء منهم في ذلك من اتخذ النصرانية أو الإسلام له ديناً!

وظل ذو نواس ورجاله يشهدون ما يدور في تلك المحرقة وما كنا ندري من أمرها لولا أن القرآن الكريم أخبرنا بها ومن أصدق من الله حديثاً..

في «سورة البروج» تتناول الآيات العشر الأولى قصة ذلك الأخدود الذي أقامه ذو نواس للمؤمنين بالله من النصارى! وهى تقول:

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فتنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ [البروج: ١-١٠].



أَصْدَابُ الْجَنَّةِ .. وما حل بها وهم نائمون!

• الأب الصالح وأبناؤد الثلاثة في حديقتهم:

ذات يوم جلس «الشيخ الكبير» في حديقته وإن شئت فسمّها جَنَّةً أو جُنيّة أو بُستاناً! وكان معه أولاده الثلاثة وقد تمنى أن يكونوا مثله في عمل الخير وخير العمل ما دام الله قد بارك لهم في جنتهم فإذا هى متعةُ النواظر ونُزهةُ الخواطر.. ظلّها ظليل وماؤها نَمير ثمارها دانية وأشجارها باسقةٌ عالية!

ونظر الأب فإذا «يومُ الحصاد» قد اقترب.. إنه بحق يومٌ عيدٍ في حياة «صاحب الجنة» الذي يُعطي ويتلقى دعوات الفقراء وشكرهم!

وهو «يوم عيدٍ» في حياة «الفقراء» الذين يفدون فيه على هذه الجنة ليأخذوا حقّهم من زكاة الزُّروع والثمار ثم يعودوا وعلى شفاههم بسمّة وفي قلوبهم فرحة وعلى ألسنتهم دعواتٌ مخلصاتٌ لصاحب الجنة أن يزيده الله مما أعطاه!

• تحديد موعد الحصاد وقطف الثمار

وهنا نادى الأب البستاني وأعوانه وحدد لهم موعداً يتم فيه الحصاد وقطف الثمار بحضور الفقراء والمساكين وأبناء السبيل!

فذلك الفضلُ من الله وهذا حقُّهم وهم ليسوا إلا شركاء فيه!
ونظر الأبناءُ بعضهم إلى بعض حين سمعوا مقالةَ والدهم وما يفكرُ
فيه وتملكتهم الحسرةُ وظهر الغضبُ في وجوههم!

• حوار حول عيد الحصاد وما يحدث فيه :

لقد كانت عادةُ الأب أن يُوسِّعَ على الفقراء والمساكين كلَّ عامٍ وكأنهم
شركاءُ له في جنته!

ومع الصدقة كان الخيرُ يزدادُ وكانت البركةُ تملأُ الجنة!
هذه وجهةُ نظر الأب وعقيدتهُ التي كانت تُسيطر عليه أما الأبناء فكان
لهم رأي آخر إلا واحدًا منهم!

قال قائل منهم لأبيه : إنك تُضيِّق علينا وتبخسنا حقنا ولو وفَّرت
هذه الأموال التي تُعطيها للفقراء عامًّا بعد عامٍ لأصبحنا من كبار
الأغنياء!

ووقع كلامُ هذا الابن على قلب الأب كالصاعقة فلم يكن يتوقع أن
يصدر منه مثلُ ذلك الكلام!

وأخفى الوالدُ ألمه وقال للثاني:

ثم ماذا؟

قال الثاني: لو استمرت سياستُك هذه في إعطاء الفقراء فإننا لن نجد
بعدك ما نُنفقه فإن قرشًا إلى قرش ثروة! ونحن نقول في أمثلتنا العامة
«خذ من التلِّ يَحْتَلِّ» .

وهَمَّ الثالثُ بالكلام لكن الأب أشار إليه بالتوقف والصمت! وسكت هو قليلاً ثم قال:

اعلموا يا أبنائي أن هذا البستان ليس مالي ولا مالكم كما ظننتم إنما هو مالُ الله جعلني خليفةً عليه إن أحسنتُ زادني وإن بخلتُ به على الفقراء والمساكين حرمني!

وفي هذا المال حقٌّ معلومٌ للسائل والمحروم وما فضل فهو لي ولكم وربُّنا قال لنا.

﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والشكر: عطاء وعمل ومُساعدة ومعاونة! وإسهام في تخفيف آلام الناس!

وقد علمتني الأيام:

- أنه لا ينقصُ مالٌ من صدقة!
 - وأن ما عندنا ينفد وما عند الله باق!
 - وأن البركة من الله الذي يُعطي من يشاء بغير حساب!
- ويمكن أن تنزل بالزرع آفةً من الآفات فلا نجدُ ما نأخذه ولا ما نعطيهِ! وهذه عادتي ولن أتخلّى عنها مادمتُ حيًّا فإذا لقيتُ ربي فافعلوا ما شئتم!

واعلموا أيها الأبناء أن الله قد وعد كُلَّ مُنفقٍ خلفاً ووعد كل مُمسكٍ تِلْفا!

فليختر كل منكم لنفسه ما يحلو له!

وسالت دموع الأب على خديه فأظهر الأبناء شفقة عليه وهم له مخالفون في الرأي إلا واحدًا منهم وهو الذي يشبه أباه في العقل والحكمة وحب الخير!

• يوم الحصاد يقترب وتكاد ساعة التنفيذ تدق

ومرت الأيام ثقیلةً متباطئةً.. ولقى الوالد ربّه فإذا هم أصحاب الجنة..
الرأي رأيهم والكلمة كلمتهم!

لقد اقترب «يوم الحصاد» الذي كان في عهد أبيهم موسمًا للخير وللحب وللشكر وللتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان!

وقبل الموعد المحدد عقد الأبناء اجتماعًا لتبادل الرأي فيما يمكن عمله لتحقيق مآربهم وتنفيذ خططهم ويا لها من خطة شريرة!

وقال أحدهم لقد انتهى زمن الفوضى والأبواب المفتحة لكل من هبّ ودبّ فلا حقّ لسائل أو محروم ولا مكان في حديقتنا لقاصدٍ أو ابن سبيل!

لقد أصبح لكل منا نصيبه يسهر عليه ويستثمره ليتزايد ويتنامى ويتكاثر وقال أخوه:

أنا معك أؤيدك فيما ذهبت إليه ونعم الرأي رأيك!!

وأحسّ أوسطهم الذي كان شبيهاً بأبيه أنّ عليه رسالةً لأبد أن يُبلّغها لهما!!

لابد أن يقول كلمته وأجره على الله! فقال لهما:

إنكما تُقدمان على أمرٍ لا خير فيه... تظنان فيه النفع ولكنه يحملُ الشرَّ والقضاء على بُستانكم!

وحذار أن تحرما الفقراء والمساكين فقد يثورون عليكم وثورتهم لا تُبقي ولا تذر!

وقد قالوا في الأمثال «اتق شرَّ من أحسنت إليه بدوام الإحسان عليه!» لا بقطعه عنه ! وصاح فيه أحدهما: كُفَّ عَنَّا نصائحك ولا تقترح شيئاً فيما لا تملكُ وأبقِ النصيحة لنفسك!

وانفضَّ المجلسُ وتركاه وهما يفكران في خطة شريرة!

• الخطة الشريرة!

لقد قررا أن يبادرا بحصد زرع الحديقة وجنى ثمارها في الصباح الباكر قبل أن يأتي الفقراء إليها حتى إذا أقبلوا لم يجدوا شيئاً!

وبادرا بالنوم ليتسنى لهما التبيكُّرُ لقطف الثمار وحصاد الزرع! وعلم الله سوء النية فطاف عليها طائف من ربك فأصبحت جرداء لا نبات فيها ولا ماء!

وتوجه الأبناء الثلاثة إلى الحديقة وهم يتلفتون حتى لا يراهم أحد! فلما اقتربوا من حديقتهم التي تركوها بالأمس مُورقة الأشجار دانية القُطوف فوَاحة الزَّهر لم يجدوا شيئاً من هذا!

وقالوا في أنفسهم : لقد ضللنا حديقتنا فلنبحث عنها!

قال أوسطهم : بل هي جنتكم التي أردتم حرمان الفقراء حقهم منها
فحرمكم الله وجزاكم شرًا بشرًا!

فارتفع صوتهُم بالبكاء والندم حيث لا ينفع الندم!

لقد نفذ السهم وما ربك بغافل عما يعملون!

وجاء الفقراء فرحين فإذا هي خاوية على عروشها تصيح فيها البوم
والغربان فعرفوا أن صاحبهم قد مات وأن الخير قد انقطع بموته!

ولقد سجل القرآن قصة أصحاب الجنة في سورة «القلم» لتكون عبرة
وعظة لكل من ييخل بماله ويمتنع عن أداء حق الله عليه فيقول:

﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ ^(١) كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ^(٢) وَلَا يَسْتَنْتُونَ ^(٣) فَطَافَ عَلَيْهَا ^(٤) طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ^(٥) فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ^(٦) فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ^(٧) أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ^(٨) إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ^(٩) فَأَنْطَلَقُوا ^(١٠) وَهُمْ يَخْشَفُونَ ^(١١) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ^(١٢) وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدَرِينَ ^(١٣)

(١) بلوأنهم: يعني المشركين.. مشركي قريش: امتحانهم واختبرناهم. أصحاب الجنة: أصحاب البستان
قيل: هم أناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة يطعم منها المساكين فلما مات أبوهم قالوا: إن كان
أبونا لأحمق حين يطعم المساكين. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ^(٢) وَلَا يَسْتَنْتُونَ ^(٣)﴾ لا يطعمون مسكينًا
والصرم: القطع يقول إذ حلفوا ليقطعون ثمرها إذ أصبحوا «لا يستنتون»: ولا يقولون: إن شاء الله!

(٤) فطاف عليها طائف: أمر من ربك

(٥) فأصبحت كالصريم: قيل: كالليل البهيم محترقة سوداء.

(٦) ﴿فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ^(٧) أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ^(٨)﴾ زرعكم : زرعكم حاصدي زرعكم ﴿وَهُمْ يَخْشَفُونَ ^(٩)﴾: يتسارون

بينهم ويهمس بعضهم إلى بعض.

(١٠) ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدَرِينَ ^(١١)﴾ أي: غدوا على أمر قد قصده واعتمدوه واستسروه بينهم قادرين عليه في

أنفسهم.

٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ٢٦ بَلْ مَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ٢ أَلَمْ
 أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوُمُونَ ^(٣) ٣٠ قَالُوا يُؤْتِينَنَا إِنَّا كُنَّا طَالِعِينَ ^(٤) ٣١ عَسَى رَبُّنَا أَنْ
 يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ [القلم ١٧: ٣٣].

-
- (١) ﴿بَلْ مَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: حرماننا من نعمة جنتنا بذهاب حرثها.
 (٢) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: أعدلهم وخيرهم ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: هلا تستنبتون فتقولون: إن شاء الله!
 (٣) ﴿يَتْلَوُمُونَ﴾: على ما فرطوا فيه من الاستثناء وعلى ما كانوا أضمرُوا من منع المساكين.
 (٤) ﴿إِنَّا كُنَّا طَالِعِينَ﴾: متعددين أمر ربنا.



ونظرة التعالي في حوارهِ مع صاحبه الفقير!

صاحب الجنتين..

• رجلان وجنتان لأحدهما

يقص القرآن الكريم علينا قصة ذلك «الغني» صاحب الجنتين وما دار بينه وبين صاحبه «الفقير» من حوار أُسدل بعده الستار على مشهد الجنة خالوية على عروشها!

وصاحبها الغني المغرور يُقَلِّبُ كَفِّهِ على ما أنفق فيها أسفًا وندمًا!
وإنك لتجد هذه القصة في «سورة الكهف» مع غيرها من القصص! ضربها الله لكفار مكة مثلاً حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اطردهم من مجلسك، ليعتبروا، ويزدجروا، ويشكروا... والويل لمن يجحد ويكفر ولا يشكر!

يقول ربنا لنبيه ﷺ :

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا ۖ وَلَمْ تُطْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا جِلْدَهُمَا نَهْرًا ۚ وَكَانَ

(١) كان المشركون في مكة قد سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من مجلسه حتى لا يشاركوهم فضرب الله لهم مثلاً رجلين.

جنتين: بستانين ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا﴾ كلا البستانين أطلع ثمرة وما فيه من النخل والكرم، وصنوف الزرع ﴿لَمْ تُطْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾: ولم تبخس ﴿وَفَجَرْنَا﴾: سبَلْنَا، ﴿جِلْدَهُمَا﴾: بينهما.

لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ: **هُوَ يُحَاوِرُهُ** ^(١) أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
[الكهف: ٣٢-٣٤].

إنها قصة رجلين: أحدهما غنى والآخر فقير... أحدهما يعتز ويفتخر بالقيم الزائلة الزائفة والآخر على خلق ودين! يعتز بالقيم الخالدة الباقية! أحدهما: يتباهى ويزهو ويفتخر بما هو فيه ويتعالى على غيره من عباد الله الطيبين الصالحين! أحدهما: كافرٌ بنعمة الله جاحدٌ لها والآخر راضٍ بما قسم الله ، لا يكف لسانه عن ذكر الله وشكره.

• حوار على باب الجنة!

وذاث يوم دار بينهما حوارٌ على باب إحدى الجنتين حيث النهر الذي يَفْصَلُ بينهما وحوله المَرْجُ الخضر والنخيلُ وتطلُّ عليهما عناقيدُ العنب، وألوان الثمر، وتغرَّد الطيورُ مسبحةً بحمد الله وشكره **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْمِعُ يُحِيطُهُ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** [الإسراء: ٤٤].

أما صاحبنا الغني.. صاحبُ الجنتين فقد تملكه الغرورُ، ونسى نعمة الله عليه، فلم يَقْطُرْ لسانه بذكر الله وشكره بل انتفش كما ينتفش الديك واختال كما يختال الطاوُسُ **﴿وَكَانَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ: هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾** [الكهف: ٣٤].

(١) وكان له ثمر: ذهب وفضة، وقيل: من كل المال. **﴿هُوَ يُحَاوِرُهُ﴾**: يخاطبه، كما قال الكفار: نحن سادات العرب وأرباب الأموال فنحنُ عنا سلمان الفارسي، وخبَّاب بن الأرت، وصهيبُ الرومي احتقاراً لهم، وتكبراً.

لقد نسي الله الذي أعطاه.. وافتخر بالمال والرجال حوله ناسيًا أن المال والولد ظل زائل وعارية مُستردّة! والدوام لله وحده!

وقديمًا كتب أحد الملوك على بابه:

«لو دامت لغيرك ما وصلت إليك!!»

لقد ظن هذا المغرور صاحب السلطان والثراء والجاه أن منزلته ستظل محفوظة له في الملاء الأعلى وأن جنته لن تبيد أبدًا ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ﴾^(١) [الكهف:٣٥:٣٦].

هكذا خيل له شيطانه.. وتملكه الغرور والتعالي على الناس!

أما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه راضٍ بما قسم الله شاكراً لله أنعمه.. ونعمُ الله لا تُعد ولا تُحصى!

لقد أنكر على صاحبه غروره وكبره وتعاليه على عباد الله وذكره بخالقه ووجهه إلى الأدب الواجب في حق الخالق المنعم!

وأنذره عاقبة الغرور وكفران النعمة وجُحودها!

وطلب من الله أن يعوّضه خيراً حين يلقاه.. خيراً من جنة الغنى وما فيها من نهر وثمر! وحكى ذلك القرآن فقال ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ:

١ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾: ظلمه لنفسه هو كفره بالبعث وشكه في قيام الساعة ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾: أن تفنى وتخرب هذه أبدًا، ثم تمنى على شك منه فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾: يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في الآخرة إن رُدِّدت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه. منقلبًا: مرجعًا ومردًا.

أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا (٣٧) لَنُكَفِّرَنَّ (٣) هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿ [الكهف: ٣٧: ٣٨].

• توجيه وإرشاد:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (٣) [الكهف: ٣٩].

• وإنذار وتذكير:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا (٤) مِنَ السَّمَاءِ فَيُضْحِكُ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يَنْصِبُ مَآوُهَا غُورًا (٥) فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٩: ٤١].

وهكذا يكون المؤمن في مواجهة الغرور والجحود.. يوجه وينذر ويرشد ويذكر لا يهاب المال والنفر.. يقول كلمة الحق.. ولا يخشى في الله لومة لائم!

إن الساكت عن الحق شيطان أخرس!

وما عند الله باق.. وما عند الناس زائل!

وفضل الله عظيم.. لكن عذابه أليم!

(١) سَوَّاهُ: جَلَّاهُ: عدلك بشراً سوياً.

(٢) لَنُكَفِّرَنَّ: بمعنى أنا أقول: هو الله ربي.

(٣) ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾: بمعنى هلا إذ دخلت بستانك فأعجبك، قلت ما شاء الله، وهذا مثل سليمان وأصحابه!

(٤) ﴿ فَيُضْحِكُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾: عذاباً من السماء ترمي به رمياً فَيُضْحِكُ: يعني جنته صَعِيدًا زَلَقًا: أرضاً ملساء

لا شيء فيها ولا يثبت في أرضها قدم.

(٥) ﴿ أَوْ يَنْصِبُ مَآوُهَا غُورًا ﴾: قد غار في الأرض.

وظل الغني على غروره وجحوده ولم تنفعه الموعظة، ولم يصرفه الإنذار عما هو فيه ، فما هي إلا أيام حتى حدث ما توقعه الرجل المؤمن!

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

فماذا حدث ؟ يقول ربنا ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿^(١)﴾ [الكهف: ٤٢]

ونظر حوله فإذا الثمر كله مدمر ، والجنة مهشمة محطمة خاوية على عروشها!

وكانها لم تكن!

وإذا هو يقلب كفيه ندماً وأسفاً على ما كان!

أين ماله؟ وأين غروره وكبرياؤه؟

أين قوته؟

أين النفر من حوله؟ لقد تفرقوا عنه ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ^(٢) [الكهف: ٤٣].

لا قوة إلا بالله.. أما قدرة الإنسان المغرور المخدوع فقد توارت ولم تعد شيئاً مذكوراً وهذه هي عبرة الحياة!

إن قصة الجنيتين تصور كيف يعتزُّ المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة!

(١) ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾: أحاط الهلاك والآفات بشمره ﴿يَقْلِبُ كَفَّيْهِ﴾: يصفق كفيه متلهفاً على ما فاته نادماً. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: خالية، ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾: بنائها وبيوتها.

(٢) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾: عشيرة وجماعة ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يمنعونه من عقاب الله عز وجل إذا عذبه.

وكيف يواجه صاحبها المنتفش المنتفخ- بالحق ويؤنبه على نسيان الله! ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ لَكِنَّكَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ ٣٨ ۚ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ ٣٩ ۚ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ٤٠ ۚ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝ ٤١ ۚ ﴾ [الكهف: ٣٧-٤١].

• مثل آخر للحياة وسرعة زوالها!

وعقب هذه القصة يضرب الله مثلاً للحياة وسرعة زوالها بعد ازدهارها ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا كَمَا ۖ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا ۝ ٤٢ ۚ ﴾ [الكهف: ٤٥].

• ويعقب في النهاية على القيم الزائلة والقيم الباقية ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ ۚ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝ ٤٣ ۚ ﴾ [الكهف: ٤٦].

(١) ﴿ هُنَالِكَ ۖ ﴾: حين حل عذاب الله عز وجل-بصاحب الجنيتين في القيامة. ﴿ الْوَلِيَّةُ ۖ ﴾: الموالاتة لله،

وتقرأ أيضًا بكسر الواو من الملك والسلطان ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ۖ ﴾: عاقبة.

(٢) ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ۖ ﴾: يعني الذين قالوا للنبي : اطرده عنا هؤلاء

الفقراء ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ۖ ﴾: يابسًا مفتتًا ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۖ ﴾: تطيره.

(٣) ﴿ وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ ۚ ﴾: أعمال الخير والعمل بطاعة الله.



حكمة سليمان عليه السلام .. وموقف أبيه منه!



في قصص القرآن دروسٌ وعبرٌ للشباب والفتيان! الذين يفكرون ويتدبرون، كما أنها دليل للآباء في تربية الأبناء على إبداء الرأي والمشاركة الجادة والتدريب على تحمل المسؤولية، والحوار المتأدب!

• سيدنا داود وابنه سليمان

ها هو ذا سيدنا داود عليه السلام يحكم بين الناس فيما شجر بينهم من خلاف ويصرف أمورهم، ويعمل على إنصاف كل مظلوم وإعطاء كل ذي حق حقه بالعدل!

وكان ابنه «سليمان» حينذاك لم يتجاوز الحادية عشرة بينما أبوه قد بلغ من الكبر عتياً!

وفكر داود عليه السلام فيمن يخلفه فلم ير غير «سليمان» عليه السلام أهلاً لحمل الأمانة! فعلى الرغم من صغره آنذاك إلا أنه ذكي متفتح، له حضوره، وله رأيه المستقل مما شجع أباه على دعوته لحضور مجالس الحكم والقضاء وكثيراً ما كان يسأله عن رأيه في هذا الحكم أو ذاك، فيبدي سليمان عليه السلام رأياً صائباً موفّقاً! وفي هذا تدريب له وتشجيع وبناء لشخصيته!

• نموذج للحكم

وذات يوم جلس النبي داود عليه السلام وإلى جانبه ابنه «سليمان» يستعرضان قضايا الخصوم ، ويفصلان فيها بالحق والعدل!

فأتى خصمان : قال أحدهما:

كان لي زرعٌ قد اكتمل نموُّه وآتى ثمره، ودنت قطفه حتى صار بهجةً
لِلناظرين، وإذا بغنم خصمي هذا تنتشرُ فيه ليلاً فأهلكته وأبادته ولم
تجد من يدفعها عنه، أو يحولُ بينها وبينه!

وسكت صاحبُ الغنم، ولم ينطق بما يدلُّ على صدق خصمه أو ادعائه
عليه بالباطل !

وصدر حكمُ داود كالآتي:

على صاحب الغنم أن يُسلمَ غنمه لصاحب الزرع جزاء إهماله ومقابل
ما أتلفته من الزروع والثمار ولم يعد له حق فيها!!

وسمع الصبيُّ «سليمان» عليه السلام هذا الحكم، وقال: غيرُ هذا أرفق
ودون هذا أوفق!!

دُهِش القومُ وعجبوا من جُرأة الغلام في الحق، وانتظروا منه مزيداً
من التوضيح والتفسير فقال:

تُدفع الغنمُ إلى أهل الحرث، لكي ينتفعوا بألبانها وأصوافها وأولادها!
كما تُسلمُ الأرض إلى أصحاب الغنم ليقوموا على زراعتها ورعايتها
حتى تعود كما كانت قبل أن ترعاها الغنمُ!

وعندئذ يردُّ كلُّ واحدٍ منهما ما أخذه من صاحبه!

فتعودُ الأرضُ إلى صاحبها! وتعود الغنمُ إلى صاحبها!

وبهذا تطمئنُّ النفوسُ وتسودُ المحبةُ فهذا أقرب للعدل وأصحُّ في
الحكم وأولى في القضاء!

فرح سيدنا داودُ بما صار إليه أمرُ ابنه سليمان وعرف أنه سيكون خيرَ

خلفٍ لخير سلف!

ويحرص القرآن الكريم على أن تكون هذه القصة ملهمة للآباء والأبناء فيقول ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ^(١) إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ^(٢) وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

فيأبها الأبناء، إن أمامكم مستقبلاً ينتظركم فأعدوا أنفسكم له! ويأبها الآباء، إن أبناءكم أمانة في أعناقكم فصونوهم! وإن أردت مزيداً من حُكم سليمان فسوف أسوق إليك قصة قريبة من هذه القصة.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت هذه لصاحبتها:

إنما ذهب الذئب بابنك!

وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك!

فتحاكما فقال «أئتوني بالسكين أشقه بينكما».

فقالت الصغرى: لا، يرحمك الله: هو ابنها!

فقاضى به للصغرى (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما) فانظر وتأمل كيف فكر سليمان عليه السلام وكيف هداه تفكيره إلى قضاء سليم.

إن المستقبل ينتظرك يا ولدي فأرنا تفكيرك!!

(١) ﴿يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾: حرث الأرض وجائز أن يكون زرعاً وكرماً. نَفَسَتْ: دخلت ليلاً فرعته وأفسدته.

(٢) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾: يعني -عز وجل- القضية في ذلك وذلك أن داود عليه السلام قضى بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: يا نبي الله يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها.



بقرة بني إسرائيل.. وما ثار حول اختيارها من حوار طويل!

في أكبر سورة من سور القرآن الكريم وردت قصة «بقرة بني إسرائيل» بل وسميت السورة هذه «سورة البقرة» مما يدل على تسليط الضوء على طريقة بني إسرائيل في الحوار وتعقيد الأمور وموقفهم من نبيهم الذي كلمه ربّه وعظمه! حتى نكون على بصيرةٍ من أمرهم بعد أن أصبح العالم اليوم كالقرية الواحدة!

وإذا كان «علماء النحو» يقولون عن «أيّ»: «أيّ هكذا خلقت» فإن «علماء النفس» يقولون: «وبنو إسرائيل هكذا خلّقوا!»

وبقرة بني إسرائيل ككل البقر ليست مستنسخة مثل «دوللي» ولا كانت نشأتها في الأنابيب! إنها بقرة عادية!

• معلومات عن البقرة:

أمها بقرة.. وأبوها ثور! كانت لعبد صالح، ورجل تقي قد طال عمره، وليس له إلا ولد صغير!

فما اقترب أجله تركها ترعى في أرض الله وقال: «اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر!» وتركها.. وترك ابنه في أمان الله!

• كفى بالله راعيا!

وربنا سبحانه يرعى أبناء الناس الصالحين الطيبين ويبارك فيهم، فقد رأيت في «قصة موسى والعبد الصالح» موقف العبد الصالح

من ذلك الجدار الذي كان يريد أن ينقض فأقامه لأنه كان لطفلين
يتيمين ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

فليتيم عند الله جانب من الرحمة والرعاية!

حتى إذا كَبُرَ أخذ يرعى بقرة أبيه، وترعاه عناية الله ورحمته!
وكان القدرُ يدخر لهذا اليتيم غنى وثروةً من حيث لا يحتسب، وجرت
أحداثٌ أثَّمت فيها أحدُ الأبرياء، بينما القاتل أبناءُ عمِّ القتيل ليرثوا ثروته،
ودفعوا الشبهة عنهم بوضعه أمام بيت ذلك البريء! واختلفوا.. وقال
الرجلُ البريء: كيف أقتله وهو بنيان الله من هدمه هدمه الله! كيف
أقتله وقد تعلمنا أن من قتلَ نفسًا بغير نفسٍ فكأنما قتل الناس جميعًا!

• عرض الأمر على سيدنا موسى:

ولم يجدوا أمامهم من يعرضون عليه الأمر إلا سيدنا موسى عليه السلام
وطلبوا منه أن يسأل ربه عمن قَتَلَ؟! وسأل موسى ربه، وكان الجواب
عجيبًا غريبًا بالنسبة لهم! فماذا قال لهم؟

• قال لهم:

اذبحوا بقرةً واضربوا القتيل ببعضها فإنه عند ذلك يحيا بإذن الله
ويخبركم باسم قاتله!

• مراجعة بني إسرائيل ولجاجهم في الحوار:

في البدء ظنوا أن سيدنا موسى **عليه السلام** يهزأ بهم ويسخر من عقولهم
فكيف ينطقُ القتيلُ حين يُضرب ببعض تلك البقرة! وما دروا أن الله

القادر يقول للشيء: كن فيكون وأنه يُحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وإنما هي الأسباب!

فراجعوه فيما قال لهم، فأجابهم بقوله: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين! عليكم أن تُنفذوا ما أمرتكم دون لف أو دوران فهو ليس من عندي إنما هو من عند الله! فتمادوا في حوارهم ولجاجهم وأخذهم وردّهم كما يفعلون اليوم في مفاوضاتهم، ولو ذبحوا أي بقرة لانتهى الأمر وحُلّت المشكلة وعُرف القتل! لكنهم شدّدوا فشّدّد الله عليهم! وجعل للبقرة علامات أصابتهم بالحيرة وجعلتهم يتخبطون ولا يدرون ما يفعلون.. إنه العناد!

قالوا لسيدنا موسى عليه السلام ما هذه البقرة؟ أهي شبيهة بالأبقار التي تعرفها، أم هي من جنس آخر؟ فبين لهم سيدنا موسى عليه السلام أنها بين المُسنّة والفتية عوان بين هذه وتلك وعليهم أن ينفذوا الأمر!

ولكنهم عادوا وقالوا لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]. فازدادت حيرتهم وضلّت عقولهم، وشغلوا نبيهم معهم بأمر كان سهلاً للغاية! وعادوا من جديد يقولون لنبيهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

وكان الرد: إنها بقرة سلمت من العيوب لا شية فيها غير مُعدّة لسقى ولا لحرث!

فبحثوا ونقبوا في البلاد وإذا هي بقرة ذلك اليتيم الفقير الذي بارك الله له في بقرته، فاشتروها بمال وفير وذبحوها بعد حيرة وضربوا الميت ببعضها فإذا هو قد دبّت فيه الروح وسرت فيه الحياة فذكر أسماء القتلة

اللثام من أولاد عمّه وبرّاً ساحة الرجل الذي اتهموه! وعرف أبناء العمّ أن الجريمة لا تُفِيد وأن من استعجل شيئاً قبل أوانه عُوقب بحرمانه!

وأراك تقول: إن بني إسرائيل هكذا خَلَقُوا وَجُبَلُوا عَلَى المِمْطَلَةِ، وبحكم عاداتهم لم يمثّلوا أول الأمر ولم تأت موافقتهم إلا أخيراً كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدْنَ هُزُوًّا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ (١) وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا (٢) تَسْرُ النَّظِيرَيْنِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ (٣) عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ (٤) تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا آلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا (٥) وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (٦) كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

وأراك تقول: هؤلاء بنو إسرائيل مع نبيهم فكيف بهم معنا نحن العرب؟! إن ما يحدث على الساحة يجيب بوضوح .. اللهم فاشهد!

(١) ﴿فَارِصٌ﴾ : مسنة هرمة ﴿يَكْرُ﴾ : صغيرة لم يقربها الفحل ﴿عَوَانٌ﴾ : نصف قد ولدت بطناً بعد بطن. وهي الوسط بين الصغيرة والكبيرة.

(٢) ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ : خالص صاف والفقوع في الصفرة نظير النضوع في البياض ﴿تَسْرُ﴾ : تعجب.

(٣) ﴿تَشْبَهُ﴾ : التبس

(٤) ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ : يعني لم تذلل بالعمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ : تقلبها للزراع ﴿وَلَا تَسْقِي﴾ : لم تدر في الساقية ﴿الْحَرْثُ﴾ : الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ : سالمة لا عيب فيها ﴿لَا شِيبَةَ﴾ : لا بياض ولا سواد يخالف لونها.

(٥) ﴿فَادَرَأْتُمْ﴾ : اختلفتهم وتنازعتم ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ : والله معلن ما كنتم تخفونه من قتل القاتل الذي قتلتم.

(٦) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ : فقلنا لقوم موسى: اضربوا القاتل ببعض أجزاء البقرة التي أمرهم الله بذبحها.



وقد خسف الله به وبداره
الأرض!

قارون وكنوزه..

• قارون كما حدثنا عنه القرآن:

كان قارون رجلاً من بني إسرائيل آتاه الله بسطةً في الرزق ووسّع عليه في المال حتى إن مفاتيح خزائنه، التي امتلأت بالذهب والفضة والجواهر النفيسة لا تستطيع العُصبة أولو القوة حملها لكثرتها! الناس ينظرون إليه وإلى ما هو فيه من غنى وثراءٍ وزينةٍ وأبهة! وكل من رآه تمنى أن يرزقه الله مثله ويُعطيهِ كما أعطاه! كان إذا خرج في زينته وخيلائه بهر النفوس وأسر القلوب! كان فيه فخرٌ وزهوٌ وخيلاءٌ على الناس حين يخرج في موكبه وكأنه يقول من له منكم مثل ما لي وعظمتي؟!!

وكان الطيبون من قومه يعظونه وينصحوه ويحذرونه عاقبة ما هو فيه من خيلاءٍ وزهوٍ على الناس! وكثيراً ما نصحوه بالابتعاد عن الإفساد في الأرض فإن المعاصي تُزيل النعم! نصحوه أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا!

قالوا له: إن الله يُحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده وذلك بالإحسان إلى الفقراء ومساعدة الضعفاء والأخذ بأيديهم كما يظهر أثر النعمة عليه في تناول المباحات، والبُعد عن المحرمات!

لم يُصْغِ إِلَى نَصَائِحِهِمْ وَأَعْطَاهُمْ أَذْنًا صَمَاءً، وَقَالَ: الْمَالُ الَّذِي عِنْدِي
هُوَ مَالِي ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

بمجهودي وذكائي وأن الله أعطاني إياه لعلمه بأنني أستحقه ولمحبته
لي . ونسى أن ذهبه وفضته لن يغنيا عنه من الله شيئاً فإن الله قد أهلك
من القرون من هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثرُ جمعا!!

فما أغنى عنهم جمعُهم ولا ما كانوا يعتزون به من مالٍ ونَسَبٍ!
ولم يُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ !

• موقف الناس منه :

وذاث يوم خرج على قومه في زينته فوقف الناس منه فريقين:
فريق مولع بالدنيا وزُخرفها فقالوا ﴿يَبْلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو
حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]. ووعظهم أهل النظر من أصفياء البشر وقالوا
لهم ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنِ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠].
لعلهم يعرفون الحقيقة ولا يعمون عنها!

• جزاء الله العادل !

ومرت أيام وأزال الله عنه لباس النعمة وأذاقه وبال أمره فخشف به
وبداره الأرض ولم يجد له ناصراً أو معيناً!

وتحكي الآيات القرآنية قصته لتكون عبرةً وعظةً لكل المغرورين الذين
ينسون ربهم ويكفرون بالنعمة ولا يذكرون الله الذي أنعم عليهم وأجرى
الخير على أيديهم ليكونوا مصدر نفع لكل من حولهم فيقول ﴿إِنَّ قُرُونًا
كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ بَغِيًّا عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ

دَقَّ لَهُ قَوْمَهُ مَنَاحَ أَنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَرْحُومِينَ ٧٠ سَبَّحَ اللَّهُ الْبَارَّ وَجَرَهُ
 لَا تَسْكُ نَصِيْبَكَ مِنْ سَبِّ أَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ ٧١ لَا تَتَّبِعْ لِنَفْسِكَ فِي الدُّنْيَا
 مِنْ اللَّهِ لَا يَحِبُّ الْمُنْفِسِينَ ٧٢ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي وَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ هَلَكَ مِنْ
 قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ شَدِيدُ قُوَّةٍ وَكَثُرُ جَمْعٍ وَلَا يُشْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمَخْرِمُونَ
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا وَقَعَ فَنُورُونَ
 إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٣ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ هُوَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا بِالْصَّخْرَةِ ٧٤ خَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ
 فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُغْتَصِرِينَ ٧٥ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ
 يَقُولُونَ وَيَسْتَطِيعُ الرَّزْقُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
 بِنَا وَيَكَانُ لَنَا بَيْعٌ الْكَافِرُونَ ٧٦ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
 فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ٧٧ [القصص ٧٦: ٨٣]. وهكذا صار قارون مثلاً وعبرة لكل

من غرته الدنيا وزخرفها ونسى الله والدار الآخرة!

• والإنسان الذي يرضى عنه ربنا هو:

الذي يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة.

ولكنه لا ينسى نصيبه من الدنيا.

يعمل للآخرة كأنه سيموت غداً..

ويعمل للدنيا كأنه سيعيش أبداً..

فإلى كل الذين لا يعبئون بغيرهم ويتناولون عليهم غرورا وكبرا..

فإذا ما سألتهم عمن ينتمون إليه؟

قالوا في غرور : أو لا تعرف ابن من أنا؟!

فهلا استمعوا إلى قول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا تغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول :هأنذا ليس الفتى من يقول :كان أبي!

وماذا فعلت القيم الزائفة لقارون؟!



المائدة التي سأل نبيهم عيسى عليه السلام أن ينزلها الله عليهم.. الحواريون..

• الحواريون ومهمتهم:

لكل نبي حواريون.. أصحاب ملازمون يؤمنون به، وينفذون تعاليمه!
ولكل نبي معجزات تساهم في نشر الدعوة وإقبال الكثيرين عليها
بعد أن يُجري الله على يديه ما يعجز البشر العاديون عن فعله!
وكان لسيدنا عيسى عليه السلام كمثال الصحابة بالنسبة للنبي محمد ﷺ .
ولقد أثنى عليهم القرآن الكريم وأخبرنا أنهم قالوا لنبيهم:
﴿إِنَّمَا آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].
بل ودعانا -نحن المسلمين- إلى الاقتداء بهم في صدق إيماننا ونُصرة
نبينا فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

• سؤال عجيب!

ومع إيمانهم برسالة نبيهم وشهودهم معجزاته سألوه ذات يوم سؤالاً
عجيباً غريباً ويا له من سؤال جريء!

لقد حدثنا عنه القرآن الكريم فقال ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٢]!

فأجابهم سيدنا عيسى قائلًا ﴿ أَتَقُولُوا أَن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٢].

فما كان منهم إلا أن أخبروه أن هذا الطلب منهم ليس ناتجًا عن شك أو تحدٍّ أو خروج على طاعته فهم صادقو الإيمان ويكنّون له كلّ محبة واحترام! كل ما هنالك أن هذه أمنية راودت خيالهم وعبروا عن صدق نيتهم بقولهم ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٣].

إن الأكل منها سوف يملأ قلوبهم بالفرحة وهي تحية لهم من الله!

ونزولها عليهم يطمئنهم على صدق إيمانهم وقبول رجائهم!

واستجاب سيدنا عيسى عليه السلام لـرغبتهم ودعا ربه بقوله ﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٤].

واستجاب الله دعاءه كما تقول الآيات ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٥].

وربنا - سبحانه - إذا وعد أوفى ومن أصدق من الله حديثًا!

ولم يحدثنا القرآن الكريم عما حوته تلك المائدة من أطعمة وأشربة!

المهم أنها كانت معجزة من المعجزات وواحدة من العجائب وربنا سبحانه هو القادر الذي يقول للشيء: كن فيكون!

اقرأ قول الله تعالى في سورة سماها باسم «المائدة» ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ^(١) أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(٢)﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ^(٣) قَالَ أَتَقُولُوا لِلَّهِ إِنَّكُمْ مَوْفُونَ^(٤) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ^(٥) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^(٦) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ^(٧) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ^(٨)﴾ [المائدة: ١١١: ١١٥].

وبعد ... فقد سميت «سورة البقرة» باسمها لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها .. وسميت «سورة المائدة» باسمها لورود طلب الحواريين من نبيهم عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء.

(١) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: قدفت في قلوبهم.

(٢) ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾: أصل المائدة من ماد فلان القوم ميذا: إذا أطعمهم ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ معناه: نتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه ويعظمه من بعدنا.



الطيرُ الأبايل .. وأصحاب الفيل

في القرآن الكريم سورة (رقم ١٠٥) اسمها «سورة الفيل»!
وأصحاب الفيل لهم قصة.. فمن هم؟ وماذا كان هدفهم؟
لقد حكى الله قصتهم في خمس آيات هي:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ^(١)﴾ أَلَمْ
يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ^(٢) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ^(٣)﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ
سِجِيلٍ^(٤) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّأْكُولٍ^(٥)﴾ [الفيل: ١-٥].

• منزلة عام الفيل:

ويعتبر «عام الفيل» فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب
القومية!

(١) ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الذين قدموا- في عهد جدك عبد المطلب- من اليمن يريدون
تخريب الكعبة وهم جند من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ يقول: ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل- في تخريب الكعبة
في تضليل يعني في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: وأرسل عليهم ربك طيرا متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح
شتى وهي الأبايل.

(٤) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِيلٍ﴾ ترمي أصحاب الفيل بحجارة من طين.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فجعل الله أصحاب الفيل كزرع أكلته الدواب فرائثه فييس
وتفرقت أجزاؤه.

فلا شك أن هذه الحادثة التاريخية العظيمة كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة حتى أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم فيقولون:

حدث هذا عام الفيل أو قبله أو بعده!

ولهذا نرى كتب السيرة تؤرخ به فتقول :

وُلِدَ الرسول صلى الله عليه وسلم عام الفيل!

إلى هذا الحد كان لعام الفيل هذه المنزلة العظيمة وكيف لا وقد مهدت «الطيرُ الأبابيلُ» السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بُنصرتها ونشر دين توحيدٍ جديدٍ هو دينُ الحنيفية السمحاء!

إنها جندُ الله أقبلت تُدافع عن بيت الله وما يعلم جنود ربك إلا هو!

• خطورة الموقف وما كان يترتب عليه لو تحقق هدف أبرهة:

ولك أن تتصور ماذا كان يحدث لو أتيح لجيش أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة أن ينتصر ويظفر!

إذن لتغيّر وجهُ التاريخ، ولانتشر الدينُ المسيحيُّ في بلاد العرب، ولانصرف الحُجاجُ والزُّوارُ من مكة إلى صنعاء!

• موقف الناس من الحرم بعدما حدث لأصحاب الفيل:

ولما ذاع نبأ «أصحاب الفيل» بين العرب زاد احترامُهم للحرم وقالوا:

«أهلُ الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم!!»

ومازال فضلُ قريش يزداُدُ بين القبائل حتى كان «عبد المطلب» الذي

اشتهر بحقر زمزم!

وفي عهده خَذَلَ الله «أبرهة الأشرم» الذي جاء لهدم الكعبة وصَدَّها عن مكة والبيت الحرام!

ونجت مكة في أيامه من خطر الأحباش فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة العربية!

• أبرهة وغزو مكة!

لعلك تذكر «أصحاب الأخدود» وما كان من «ذي نواس» من محاولة نشر «اليهودية» وفرضها على أهل «نجران» الذين آثروا «المسيحية» وأبوا أن يتخلوا عنها إلى غيرها مهما كان من تهديد ووعيد!

ولكن رجلاً فر منهم حتى أتى «قيصر ملك الروم» فاستنصروه على ذي نواس وجنوده، وأخبره بما كان منهم! فكتب إلى «ملك الحبشة» وأتى الرجل النجاشي بكتاب قيصر وشكا إليه ما حل بقومه من الهلاك والدمار على يد ذي نواس!

وعز على «النجاشي» أن يخبو الدين المسيحي في هذا البلد فبعث بجيش جرار إلى اليمن ولما التقى الجمعان تتابعت الهزائم على «ذي نواس» وأسلمت اليمن قيادها إلى «النجاشي» وأصبحت ولاية تابعة للحبشة وذهب ذو نواس إلى غير رجعة جزاء وفاقا لما كان منه مع أصحاب الأخدود ثم صار «أبرهة الأشرم» والياً على الحبشة، فأراد أن يُعيد إلى الدين المسيحي شأنه! وينشره بين العرب!

ولما رأى الناس جميعاً يقصدون «مكة» يحجون إلى بيتها الحرام وكعبتها المقدسة فكر أن يصرف الناس عن مكة وبيتها ويجذب قلوب الناس نحو بلاده.

فبنى «كنيسة» بصنعاء وزينها بما يبهّر الأبصار ويجذب إليها القلوب
وجلب لها من فاخر الأثاث ما جعل الكلّ يظنون أنه سيصرف العرب عن
البيت العتيق إلى كنيسته!

• الشر بالشر والبادي أظلم:

ولكنه لم يجد من العرب إقبالاّ على كنيسته بل ازداد غضب العرب
عليه وتسلل واحد منهم إلى كنيسته فأحدث فيها ليلا!

ولما علم «أبرهة» بما حدث أقسم لينتقم من كنيسته وليزيلن بيت
إبراهيم وإسماعيل! حتى لا تكون هناك كعبة بعد اليوم!

أعدّ جيشاً من الأحباش تتقدّمه الفيلة!

وعسكر بقرب مكة في مكان يسمى «المغمس» وهناك دارت مناوشات
بين الأحباش والعرب!

وكان أبرهة عندما نزل «المغمس» قد بعث رجلاً من الحبشة يقال له
«الأسود بن مقصود» على خيل له إلى مكة، فساق إليه أموال أهلها من
قريش وغيرهم وأصاب مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم كبير قريش
وسيدها وجدّ النبي ﷺ.

فهتّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله
ولكنهم رأوا ألا طاقة لهم به!

وعندئذ بعث أبرهة «حناطة الحميري» إلى مكة وقال له: سل عن سيد
هذا البلد ثم قل له: إن الملك يقول لكم إنني لم آت لحربكم إنما جئت
لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم!

فإن لم يُرد حربي فائتني به!

فلما دخل «حناطة» مكة سأل عن «سيد قریش» وشریفها فقیل له هو:

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي..

فجاءه وأخبره بما أمره به أبرهة.. فما كان جوابُ عبد المطلب إلا أن

قال له:

والله ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك من طاقة!

هذا بيتُ الله وبيتُ خليله إبراهيم.

فقال له حناطة: هيا معي إلى الملك، فقد أمرني أن آتيه بك.

فانطلق معه «عبد المطلب» ومعه بعض بنيهِ حتى أتى العسكر فلما

تقابل مع تُرجمان^(١) الملك قال له:

«حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مئتي بعير أصابها لي!»

فقال أبرهة لتُرجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتُك! ثم زهدتُ

فيك حين كلمتني عن إبلِك!

أتكلمني في مئتي بعير قد أصبْتُها لك وتتركُ بيتًا هو دينُك ودينُ آبائك

قد جئتُ لهدمه وأراك لا تُكَلِّمني فيه!!

• **لبيت رب يحميه!**

وهنا قال له عبد المطلب: «أما الأبلُ فهي لي وأما البيتُ فله ربُّ

يحميه!!»

(١) المترجم

ولقد كان عبدُ المطلب رجلَ سَلامٍ فعرض على أبرهة ثلث أموال تهامة
على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت! بيت الله!
فأبى الخبيثُ ورفض دعوة السلام!

ولكن الله الذي سلط على «ذي نواس» من انتقم منه سوف يُسلط
على «أبرهة جندًا من جنوده لحماية بيته!

• عودة:

وعاد «عبد المطلب» إلى مكة .. إلى البيت الحرام حانقًا غاضبًا واتجه
إلى الكعبة، ومعه جماعة من قريش ودعا الله قائلاً:

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ يَا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنْ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ امْنَعُهُمْ أَنْ يَخْرِبُوا قُرَاكَ

لقد عجزت وسائلُ «عبد المطلب» عن مقاومة أولئك المعتدين ولم
يعد أمامه إلا الالتجاء إلى الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف!
إنه وحده هو القادر على إذلال الجبارين وردهم على أعقابهم
خاسرين مدحورين!

﴿وَاللَّهُ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]

﴿وَمَا يَغْلُزْ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

• الفيل محمود والطير الأبايل!

أصر أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة فذلك ما جاء من أجله
وأقسم عليه!

هياً فيله الأكبر واسمه «محمود» ووجهه إلى مكة ليهدم الكعبة فأبى
إلا الرجوع من حيث أتى!

وضربوا الفيل ليقوم ولكنه أصر على عدم القيام إلى حرم الله!

وجهوه إلى اليمن فإذا به يهرول ويسرع!

وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك!

وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك!

وجهوه إلى مكة ثانية فأبى إلا نفوراً!!!

وفي اللحظات الحاسمة وعلى باب مكة حرم الله الآمن أرسل الله
عليهم «طيراً أبابيل» جماعات جماعات كالطائرات التي تغير على
المواقع في طلعات ترميهم بحجارة من سجيل (طين متحجر) لا تصيب
أحداً إلا هلك!

وكانت الهزيمة.. وكان التفرق.. وكان نصر الله! نعم هُزم جيش أبرهة
الذي تحصن بالفيل أقوى الحيوانات وأضخمها على يد ذلك الطير الأبابيل
أرق الطيور وأضعفها!

ولا تعجب إنها إرادة الله!

يكفي أن يسلط الله عليهم «فَيروسًا» أو «جرثومة» تفتك بهم وإن
بطش ربك لشديد!!

لقد جعلهم الله كعصف مأكول.. كحطام التبن ودُقاقه «وتفرقوا أيدي
سبأ» وتشتت شملهم ومن نجا منهم وفرّ.. وهنت قوته.. ولحق بمن
مات!

وكان ذلك تمهيدا لنبوة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت بعد أربعين سنة من عام الفيل.

حدث هذا قبل الإسلام.. وسيظل نذيرًا لمن أراد الإسلام بسوء يحذرهم وينذرهم ويقول لهم:

كُفُوا أيديكم فإن للإسلام ربًّا يحميه!!



مسجد الضرار.. وصُدور الأمر بهدمه!



قصة «مسجد الضرار» قام بها منافقون متطرفون لهذا أفرد القرآن قصتهم من بين سائر المنافقين وخصص لهم حديثاً مستقلاً لما تميزوا به بين طوائف المجتمع من إضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصاد لمن حارب الله ورسوله!

وهم لهذا يُقيمون مسجداً يجتمعون فيه، ويُخططون ويكيدون للإسلام والمسلمين!

وقد بلغ من تحديهم لله ورسوله أنهم يدعون الرسول ﷺ وهو ذاهب إلى «تبوك» لحرب الروم.. يدعونه للصلاة فيه ، ولكي يفتتحه «رسمياً» وحتى يكون مناوئاً لمسجد «قُباء» ذلك المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم وشتان بين هذا وذاك!

ووعدهم الرسول ﷺ أن ينظر في الأمر حين يعود بمشيئة الله من «تبوك»!

ولكنه حين عاد أمر بهدم «مسجد الضرار» بناءً على أوامر صدرت من الله الذي يعلم بما يبيتونه للإسلام والمسلمين ونزل جبريل عليه السلام يحمل إلى النبي ﷺ ما وراء بناء هذا المسجد من أسرار!!

ويحدثه عن هذا الصنف المتميز من المنافقين الذين إذا عاهدوا غدرُوا، وإذا خاصموا فجرُوا وإذا حدَّثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا فيقول:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا^(١) وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^(٢) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ^(٣) أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْطَهَرُوا^(٤) وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ^(٥) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شِقَا^(٦) جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٧) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ^(٨) الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٩) [التوبة: ١٠٧-١١٠].

فمن أولئك الذين كانوا وراء بناء هذا المسجد؟!

وما سبب نزول هذه الآيات؟

يقول ابن كثير في التفسير: سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له «أبو عامر الراهب» وهو الذي سماه الرسول ﷺ «أبا عامر الفاسق» لما بدر منه!

(١) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: لمسجد الرسول ﷺ ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يبعون التفريق بين جماعتهم. ﴿وَإِصْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهو أبو عامر، وكان محارباً لرسول الله ﷺ. وكان قد انطلق إلى ملك الروم ليأتي بجند من الروم يزعم أن يخرج النبي وأصحابه من المدينة. والأرصاد: الإعداد.

(٢) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: مسجد رسول الله ﷺ الذي فيه منبره وقبره. وقيل: هو مسجد قباء. ﴿أَنْ يَنْطَهَرُوا﴾: أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾: المتطهرين بالماء.

(٣) ﴿جُرْفٍ هَارٍ﴾: على حرف (حافة). ﴿الْجُرْفُ مِنَ الْآبَارِ مَا لَمْ يَبْنِ لَهُ جَانِبٌ﴾ «هار» أصلها هائر من هار بمعنى: انهار وانهدم.

(٤) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ﴾: يعني مسجد الضرار ﴿رِيبَةً﴾: شكاً ونفاقاً. ويحسبون أنهم كانوا ببنائهم محسنين ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: يموتوا.

وكان قد تنصر في الجاهلية، وله شرف في الخرج كبير حيث قرأ علم أهل الكتاب.

فلما قَدِمَ الرسول ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمةً عاليةً، ونصر الله المسلمين يوم بدر، وأظهرهم على عدوهم شَرِيقَ اللعين أبو عامر الراهب بريقه^(١) وبارز بالعداوة وظاهر بها!

ولم يكتف بهذا بل خرج فارًّا إلى كُفار مكة من مشركي قريش وعرض مساعدته لهم في حربهم ضدَّ رسول الله ﷺ! فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان! وامتحنهم الله - عز وجل - وكان النصر للمتقين!

وكان هذا الفاسقُ اللعين قد حفرَ حفائرَ فيما بين الصَّفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب في ذلك اليوم فجرح وجهه الشريف وكسرت رِباعِيَّتُهُ^(٢) اليمنى السفلى وشُجَّ^(٣) رأسُه - صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم «أبو عامر الراهب» في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق... يا عدوَّ الله!!

(١) أصابته غصة.

(٢) الرِّباعية: بفتح الراء السن بين الثنية والناب وهي أربع: ثنتان في الفك الأعلى ومثلهما في الفك الأسفل.

(٣) شق جلد رأسه.

ونالوا منه وسُبُوهُ! فرجع وهو يقول:

والله لقد أصاب قومي بعدي شرًّا!!

ولما لم يجد له نصيرًا فرَّ ولم يعد!

وكان الرسول ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن

فأبى أن يُسلم وتمرد وأمعن في الأذى!

فدعا عليه الرسول ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا!!! فنالتة هذه الدعوة!

ولكن كيف كان ذلك؟

• التآمر على الإسلام ورسوله!

لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور،

ذهب إلى هرقل «ملك الروم» يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومَنَّاه

وأقام عنده!

ومن هناك كتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق

والرَّيْب يَعُدُّهم ويؤمنهم أنه سَيُقدِّم بجيش يقاتل به رسولَ الله ﷺ

ويغلبه ويردُّه عما هو فيه!

وأمرهم أن يتخذوا له مَعْقلاً وَمَقَرّاً يقدِّم عليهم فيه من يقدِّم من عنده

حاملاً كُتِبَهم ورسائله إليهم ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك!

وعندئذ شرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد «قُبَاء» فبنوه وأحكموه

وفرغوا منه قبل خروج الرسول ﷺ إلى «تبوك» وجاءوا فسألوا رسول

الله ﷺ أن يأتي إليهم فيُصلِّي في مسجدهم ، فيحتجوا بصلاته فيه على

تقريره وإثباته!

وذكروا أنهم بَنَوْه للضعفاء منهم وأهل العِلَّة في الليلة الشاتية عندما
سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن سبب بنائه وحلفوا بالله إن أردنا
إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون!!

فعصمه الله من الصلاة فيه فقال لهم:

«إِنَّا عَلَى سَفَرٍ وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا-إِنْ شَاءَ لِلَّهِ-»

فلما قفل صلى الله عليه وسلم راجعًا إلى المدينة المنورة من «تبوك»
ولم يبق بينه وبينها إلا يَوْمٌ أو بعضُ يوم نزل جبريل-عليه السلام- بخبر
«مسجد الضَّرار» وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين في
مسجدهم «قباء» الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم!

فبعث الرسول ﷺ إلى المسجد من هَدَمَهُ قبل مقدمه إلى المدينة!
هذا هو «مسجد الضرار» الذي أمر الله ﷻ ألاَّ يقوم فيه، وأن
يقوم في المسجد الأول-مسجدِ قباء- الذي أُسِّسَ على التقوى من أول
يوم والذي يضم رجالاً يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين!

هذا المسجد.. مسجد الضرار الذي اتُّخذ أداة للإضرار بالمسلمين على
عهد الرسول ﷺ وتحت سمع المسلمين وبصرهم لا يُراد به إلا الإضرارُ
بالمسلمين والكفرُ والتفريقُ وسترُ المتآمرين تحت ستار الدين!

وما أكثرُ «المؤامرات» في عصرنا وبخاصة تلك المؤتمرات المشبوهة
وأولئك الذين يتمسحون بالدين وهم له كارهون!

إن علينا أن نفتح عيوننا لكل من يُحاول النيلَ من ديننا ومقدساتنا،
والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون!



والضجة التي أثارها اليهود تحويل القبلة.. والمنافقون المشركون حول هذا التحويل!



كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة امتحاناً للمسلمين!

وكان لليهود موقفهم من هذا التحويل .. وقال المنافقون فيه ما قالوا. وسعد المشركون بعودته إلى البيت الحرام! وخيل إليهم أن ذلك تمهيد للعودة إلى دينهم.. وارتدّ ضعاف الإيمان وحسبوه تردداً!

• بيان موقف اليهود من تحويل القبلة:

واليهود هم اليهود في كل زمان ومكان، لهم طبيعتهم وطريقتهم التي لا يتخلون عنها ولا يستبدلون بها غيرها!

يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَيَضَعُونَ أَنفَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ!

ويتدخلون فيما لا يعينهم ، فإذا سمعوا ما لا يُرضيهم قالوا:

عُنْصِرِيَّةٌ وَعَدَاءٌ لِلْسَّامِيَةِ وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْمَثَلُ الْعَامِيُّ الْقَائِلُ: «لا يُعْجِبُهُمُ الْعَجَبُ وَلَا الصَّيَامُ فِي رَجَبٍ»

فعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة اتجه إلى «بيت المقدس» وظل على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً وعندئذ قال اليهود: اتَّبِعْ قَبْلَتَنَا وَغَدًا يَتَّبِعُ دِينَنَا وَتَكُونُ لَنَا الْغَلْبَةُ!!

وكان الرسول ﷺ طوالَ هذه المدة يعجبه أن تكون قبلته جهة البيت الحرام مع ما يُكنه لبيت المقدس من تقدير واحترام!

فإليه كان مسراه ومنه كان معراجُه الذي فرضت فيه الصلاة! ولكن مكة أحبُّ بلادِ الله إليه، ولولا أن قومها أخرجه منها لما خرج! وفيها «البيتُ الحرام» الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وجده إسماعيل!

وحقق الله رغبة نبيه ﷺ ذات يوم في أثناء صلاة العصر فنزل عليه قوله تعالى ﴿ قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) [البقرة: ١٤٤].

وإذا بالمسلمين يتحولون في صلاتهم من بيت المقدس إلى البيت الحرام الذي بناه جدُّنا إبراهيم عليه السلام وابنه سيدُّنا إسماعيلُ. يُصبح بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين بعد المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة!

والزائر للمدينة المنورة يجد فيها المسجد «ذا القبلتين» شاهدًا على تحويل القبلة!

وهذه المساجد الثلاثة «المسجد الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس» هي التي تشد إليها الرِّحال ويرحل لزيارتها النساء والرجال! لفضل الصلاة فيها على غيرها!

(١) ﴿ قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ ﴾ تحوله وتصرفه. ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ نحو السماء. ﴿ فَوَلِّ ﴾ اصرف وحول. ﴿ شَطْرَ الْمَسْجِدِ ﴾ بمعنى نحو وقصد وتلقاء.

أما ما عداها من المساجد فكلها في الفضل سواء!
وأنكر اليهودُ على النبي ﷺ تحويلَ القبلةِ إلى المسجدِ الحرامِ
وتملكهم الحقدُ والغیظُ!

لقد كانوا قبل هذا التحويل يقولون : إنه يخالفنا ثم يتبع قبلتنا، ولولانا
لم يدرِ أين يستقبل ربّه!

فلما تحولت القبلةُ توجّه نفرٌ منهم إلى رسول ﷺ وقالوا له:
«ما ولّاك عن قبلتك التي كنتَ عليها وأنت تزعمُ أنك على مِلّةِ إبراهيمَ
ودينه»؟! ودينه؟!

ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نَتَّبِعْكَ ونُصَدِّقْ!!
ولم يكتفوا بها بل أشاعوا على أثر ذلك أنه قد عاد إلى طريقة آبائه
واشتاق إلى دينهم ولو ثبت على قبلتنا لَكُنَّا نرجو أن يكونَ هو صاحبنا
الرسولَ المنتظر المبشّر به في التوراة!!
لقد كان قصدُهم فتنة الرسول ﷺ وصحبه وإشاعة البلبلة في نفوس
ضعاف الإيمان!

• موقف المنافقين والمشركين!

وأطل المنافقون برءوسهم وخرجوا من أوكارهم وانكشف القناعُ عن
الوجوهِ الفاجرة وقالوا: ما بال محمدٍ لا يثبتُ على حالٍ! مرّةً ها هنا، ومرّةً
ها هنا!!

وقال المشركون من أهل مكة لليهود:

«تَحَيَّرَ عَلَى مُحَمَّدٍ دِينُهُ، فَتَوَجَّهَ بِقِبَلَتِهِ إِلَيْكُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يَدْخَلَ فِي دِينِكُمْ!!»

وقالوا أيضًا : «أَبَى إِلَّا الرُّجُوعَ إِلَى مُوَافَقَتِنَا وَلَوْ ثَبَتَ عَلَيْهِ أَوَّلًا لَكَانَ أَوْلَى بِهِ»!!

وارتد رجال عن الإسلام من ضعاف الإيمان ممن كانوا قد أسلموا واتبعوا رسول الله لما أحدثه المنافقون واليهود من تشكيك وتأثير على النفوس!! وقد أطلق القرآن على هذه الطوائف جميعًا وصف «السفهاء» فقال ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١١٢ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٣ ﴾ [البقرة: ١٤٣: ١٤٤].

لقد أثار هذا التحويل ثائرة اليهود والمنافقين والمشركين من قريش وغيرهم.

وقد قال الله تعالى ردًا على هذه الأقاويل ﴿ قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّ قِبْلَتَكَ تَرْضَاهَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

١١) ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ﴾ صرفهم وحولهم.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ الوسط في كلام العرب: الخيار ﴿يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ يقال ذلك لكل تارك أمر وأخذ غيره، إذا انصرف عما كان فيه إلى الذي كان تاركًا له فأخذه فيقال: ارتد على عقبه وانقلب. ﴿يُضِلُّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ قيل: الإيمان ها هنا الصلاة.. ﴿لَرَّءُوفٌ﴾ ذو رأفة.

وأكد هذا المعنى بقوله عقب الآية السابقة ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ وَلَئِنْ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٤٥ ﴾ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
١٤٦ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ [البقرة: ١٤٥، ١٤٧].

وهكذا أمر الله بتحويل القبلة ليقضي على بُذور الشك والفتنة
والأعيب اليهود والمنافقين ومشركي مكة!

وكان تحويل القبلة امتحانًا نجح فيه بالإيمان من نجح وخسر فيه
أعداء الإسلام من السفهاء!

واهتزت الكعبة طربا بعودة الرسول الأمين إليها، فعما قريب سوف
يُطَهَّرُهَا من الأصنام والأوثان ويفتح الله له فتحًا مبينًا ويدخل الناس في
دين الله أفواجا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى..
وقد كان!

وأراك تقول: وماذا يكون حال السفهاء عندئذ؟

وأقول ما قاله الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا ^(١) كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ لِيَكْذِبُوا كَذِبَ الْمُكَفِّرِينَ ٥٠ ﴾ [المجادلة: ٥٠].

(١) أخزاهم الله

(٢) مُذِل.

أبو بكر الصديق.. واليهودي فنحاص

ذات يوم بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وعاشوا الأوس والخزرج واليهود!

دخل أبو بكر الصديق-رضى الله عنه- مدراس اليهود^(١) فوجد ناسًا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم! فقال أبو بكر -رضى الله عنه- لفنحاص:

اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة! فأمن يا فنحاص وصدق وأقرض الله قرضًا حسنًا يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب.

وهنا قال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا^(٢) أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني!

فإن كان ما تقول حقًا فإن الله فقيرٌ ونحن أغنياء!

ولو كان غنيًا ما استقرضنا أموالنا!

(١) الموضع الذي تدرس فيه توراتهم.

(٢) يطلب منا أن نعطيه قرضًا وذلك إشارة إلى الآية الكريمة: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٤٥]. وقوله سبحانه: «وَقَرْضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» [المزمل: ٢٠]. والمراد: أنفقوا في سبيل الله من أموالكم فهو خير يوم القيامة في معادكم.

فغضب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وضرب وجهه فنحاص ضربة شديدة وقال:
والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو
الله!

فذهب «فنحاص» إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا محمد: انظر إلى ما صنع بي صاحبك!

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق:

ما الذي حملك على ما صنعت؟!

فقال : يارسول الله:

إن عدو الله قال قولاً عظيماً!

زعم أن الله فقيرٌ وأنهم أغنياء فغضبتُ لله وضربتُ وجهه!

فجدد ذلك فنحاص وأنكره، فنزلت الآيات ردًا على فنحاص وتصديقًا

لأبي بكر ^(١) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ^(٢) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ [آل عمران ١٨١: ١٨٢]. وما ظنك بمن يقتلون

أنبياءهم؟ وهل تنتظر منهم خيرًا؟ اللهم لا!!

(١) أسباب النزول للنيسابوري

من حيل اليهود والأعبيهم!

حياتهم مكر ودهاء.. وأسلوبهم تَحَايُلٌ والتَّوَاءُ!
ولكن القرآن الكريم كان يكشفُ حيلهم ويُسَلِّطُ الضوءَ على الأعبيهم
بين حين وحين!

كان العرب يقولُ بعضهم لبعض عند اللقاء: رَاعِنَا أَيُّ انْظُرْ إِلَيْنَا وَلَا
تَحْرَمْنَا مِنْ رِعَايَتِكَ واهْتِمَامِكَ فَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَيْهَا! وكانوا كثيرًا ما
يقولونها للرسول ﷺ.

فلما سمعهم اليهودُ بالمدينة يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك،
ووجدوها فرصةً للتعبير عن حقدِهِم على النبي ﷺ وسبِّهِم له علانيةً
بعد أن كانوا يُخفون ذلك! ولكن كيف ذلك؟

إن هذه الكلمة عند اليهود ليست «فعلَ أمر» يُطلَبُ به مزيدٌ من
الرَّعاية والاهتمام والنظر بعين المودَّة والمحبة!

ولكنها اسم.. ووصف لمن تقال له: بالرعونة والحُمق والطيش!

فكانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون:

«يا محمدُ راعنا» ويضحكون!

وفطن لذلك رجل من الأنصار وهو «سعد بن عبادة» رضي الله عنه وكان عارفاً
بلغة اليهود!

فقال لهم: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله!

والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه!

فقالوا: أستم تقولونها لنبينا؟!

فأنزل الله عز وجل: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**
وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [البقرة: ١٠٤].

هؤلاء هم اليهود قديماً كانوا يتحايلون على الألفاظ للوصول إلى
أهدافهم! ولهم تفسيرات تحقق أغراضهم!

أليس منهم من كان يقلب تحية الإسلام بما فيها من أمن وسلام فيقولون
عندما يلتقون بالمسلمين: السَّامُ عليكم!
والسَّامُ هو الموت!

فهل تراهم قد تغيروا عما كانوا عليه؟!!

كل كلمة لها عندهم تفسير يخالف معناها عند غيرهم وهذا سر
صعوبة التفاهم معهم! وتفسير كل شيء على هواهم!

إياك وما يعتذر منه!!

• أضواء على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

كان فتح مكة فاصلاً بين الحق والباطل، حيث تغير بعده مجرى الحياة فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد أن خرج المسلمون من مكة مطاردين ثم عادوا إليها ظافرين منتصرين!

ولم يعد هناك شك في صدق رسالة محمد ﷺ عند العرب، وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون!

• العدو الجديد على الحدود:

ولكن كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر وهي قوة «الرومان» أكبر قوة ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان!

وجاءت الأنباء بأن «الرومان» يُعدون أنفسهم لغزو المسلمين في ديارهم!

وخرج الرسول ﷺ إليهم لمواجهةهم في عُقر دارهم بعد أن أعلن التعبئة العامة!

وتسابق المسلمون إلى التجهز للغزو بينما تخلف ألوان ثلاثة من الناس!

ورجع الجيش الإسلامي من «تبوك» على حدود بلاد «الروم» ظافراً منتصراً لم يُصبه أذى وكفى الله المؤمنين القتال.

• وكان الله قويا عزيزا..

عندئذ أقبل «المخلفون» على رسول الله ﷺ وهم الذين تخلفوا ولم يشتركوا مع الجيش الإسلامي في معركته الفاصلة! سواء في ذلك من كان له عذر أو من ليس له عذر. ويقول كتاب السيرة:

كانت هذه الغزوة اختباراً للمؤمنين ليميز الله الخبيث من الطيب، فقد خرج في هذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادق الإيمان حتى صار التخلّف علامةً على ضعف الإيمان والنفاق!

فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ قال لهم: دُعوه فإن يكن فيه خيرٌ فسيلحقه الله بكم! وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه!

وكان المتخلفون ثلاثة أصناف:

- ١ - من لهم عُدْرٌ ومنعهم عُدْرهم!
- ٢ - من ليس لهم عذر وكذبوا على الله ورسوله من المنافقين سواء منهم من استأذن للقعود كذباً ومن قعد ولم يستأذن
- ٣ - من ليس لهم عذر ولكنهم صدقوا واعترفوا بذنبهم وابتلاهم الله ثم تاب عليهم وهؤلاء هم الذين يعيننا أمرهم!

• موقف الرسول ﷺ ممن تخلفوا:

ولما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة -بسلامة الله- بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين كما هي عادته ثم جلس للناس!

فأما المنافقون وهم بضعة وثمانون رجلاً من الأنصار ومثلهم من الأعراب فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار وأخذوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل منهم علانيهم وبايعهم واستغفر لهم وترك أمرهم إلى الله فإنما هو يحكم بالظاهر والله وحده هو الذي يتولى السرائر ولا يعلم الغيب إلا الله الذي يعلم السر وأخفى!

وأما نفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين وهم:

• كعبُ بنُ مالك

• ومرارةُ بن الربيع

• وهلالُ بن أمية

فهؤلاء الثلاثة هم الذين اختاروا الصدق وأخبروا الرسول ﷺ بأنه لم يكن لهم عُذرٌ وأنهم كانوا قادرين على الاشتراك في هذه الغزوة لكنهم لم يفعلوا وأعلنوا ندمهم وتوبتهم!

وانتظر الرسول ﷺ أمر الله فيهم وأمر الصحابة ألا يُكلِّموا «هؤلاء الثلاثة» حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً!!

وجرت مقاطعةٌ شديدةٌ لهؤلاء الثلاثة، ونَفَرَ الناسُ منهم وتنكرت الأرضُ لهم وضاعت عليهم بما رحبت، وضاعت عليهم أنفسهم، وصاروا كالغرباء!

وقضوا «أربعين ليلة» كانت أطول من أربعين عامًا! وهم صابرون
ينتظرون عفو الله ورِضاه!

وكانت تجربة قاسية!

وكان امتحانًا عنيفًا لا عهد لهم بمثله!

تُرى هل سينجَحُون في الامتحان وينالهم عفو الله؟!!

لقد بلغت بهم الشدة أقصاها، فقد صَدَرَ الأمرُ الكريمُ أن يعتزلوا
نساءهم بعد مضي «أربعين ليلة» في جو تلك المقاطعة الأليمة!
فأصبحوا في عزلة عن الجميع حتى أزواجهم!

لكنهم صبروا، وانتظروا، وتحملوا حتى كانت الليلة الخمسون وعندئذ
نزل جبريل على النبي ﷺ يعلن براءتهم ونجاحهم في هذه التجربة في
قرآن يُتلى علينا، تقول الآيات:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ
أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءِ أَلَّنَ اللَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وفرح المسلمون بعودتهم إلى صفوفهم!

وفرح هؤلاء الثلاثة ببراءتهم وكان هذا اليوم عيدًا لهم!

أما الذين كان لهم عذر، فقد قال الله فيهم:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقُوتُ
حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩١﴾ وَلَا
عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيُحْمَلَهُمْ فُلْتٌ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ
فَافِئَةٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوثُوا مَا يَفْقُوتُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

وقال فيهم رسول الله ﷺ :

«إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر!

قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة.

قال: وهم بالمدينة!«.

أما الذين اعتذروا ولا عذر لهم، فقد قال الله فيهم لنبيه:

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانٍ بِأَن يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٩٣ ﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٤
سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٩٥ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَأِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة: ٩٣-٩٦].

وكثيراً ما نعتذر دون أن يكون لنا عذر، والله أعلم بحالنا، وقد قالت

العرب:

«إياك وما يعتذر منه» حتى تغلق باباً واسعاً من أبواب الكذب!!



مَحْتَوَاتُ الْكِتَابِ

٣	مقدمة المؤلف
٥	قاييل وهابيل وبوادر العِداء بين الإخوة!
٩	أصحاب السبت وما حل بهم من عذاب بئيس
١٢	أصحاب الكهف والرقيم وتضحيتهم في سبيل الحق والواجب
١٨	موسى - عليه السلام- والعبد الصالح
٢٧	ذو القرنين ورحلات الخير في الشرق والغرب
٣٢	سد مأرب الذي دمرته السيول وسر تدميره!
٣٦	أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود!
٤١	أصحاب الجنة وما حَلَّ بها وهم نائمون!
٤٨	صاحب الجنتين ونظرة تعالى في حوارهِ مع صاحبه الفقير
٥٤	حكمة سليمان وموقف أبيه داود منه عليهما السلام
٥٧	بقرة بني إسرائيل وما دار حول اختيارها من حوار طويل
٦١	قارون وكنوزه وقد خسف الله به وبداره الأرض
٦٤	المائدة التي سأل الحواريون نبيهم عيسى عليه السلام أن ينزلها الله عليهم.
٦٧	الطيرُ الأبايلُ وأصحاب الفيل
٧٥	مسجدُ الضَّرارِ وصدور الأمر بهدمه
٨٠	تحويل القبلة والضجة التي أثَّرت عند تحويلها
٨٥	أبو بكر الصديق واليهودي فنحاص
٨٧	من حيل اليهود والأعيهم
٨٩	إياك وما يعتذر منه